المغني في التَّفسير

المُحَرِّرُ الجامِعُ لِتفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

مُقْتَبَسَةً مِنْ مُوسُوعَةِ التَّفْسِيرِ المَأْثُورِ

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْنُ عَبْدِهِ

د/ آلَاءِ رِضَا

غَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا وَلِوَالِدَيْهِمَا وَلِمَشَايِخِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

سُورةُ سَبَأٍ، سورةُ فاطرٍ

(المجلدُ السَّادسُ والعشرونَ)

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

نسخة إلكترونية

تَفْسِيرُ
سُورَةِ سَبَأٍ

سورةُ سَبَأٍ

سورةُ سَبَأٍ

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسُورةِ (سَبَأٍ).[1]

سورةُ سَبَأٍ مَكِّيَّةٌ،[2] وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك.[3]

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ سَبَأٍ:

---

(1) سُمِّيت سورةُ (سَبَأٍ) بهذا الاسمِ؛ لاشتمالِها على قِصَّةِ سَبأٍ.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/382)، ((تفسير ابن عاشور)) (22/133).

وقد ورَدتْ بعضُ الآثارِ في تسميتِها بذلك؛ منها: ما أخرجه ابنُ الضُّرَيْسِ في ((فضائل القرآن)) (17)، عن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ الله عنهما.

ويُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (6/673).

(2) وقيل: السورةُ مكِّيَّةٌ إلَّا آيةً واحدةً، وهي قَولُه تعالى: وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ... [سبأ: 6]؛ فمدنيَّةٌ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (19/207)، ((تفسير الماوردي)) (4/431).

قال ابنُ عطية (٧/ ١٥٥): «هي مكية، واختُلِف في قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ هُوَ الحَقَّ﴾ الآية [سبأ: ٦]، فقالت فرقة: هي مكية، والمراد: المؤمنون بالنبي - ﷺ -.

وقالت فرقة: هي مدنية، والمراد: مَن أسلم بالمدينة مِن أهل الكتاب؛ كابن سلام وأشباهه».

(3) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والفيروزابادي، والبِقاعي.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (3/489)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/382)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (2/376).

1- إبطالُ قَواعدِ الشِّرك، والرَّدُّ على شُبَهِ المشركينَ.

2- بيانُ الحُجَّةِ على التَّوحيدِ، وصِدقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي تناولَتها سُورةُ سَبَأٍ:

1- الاستِفتاحُ بالحَمدِ لله سُبحانَه المالِكِ لِما في السَّمَواتِ والأرضِ، المحمودِ في الآخِرةِ؛ وبيانُ سَعةِ عِلمِه.

2- بيانُ تكذيبِ المُشرِكينَ بالقيامةِ والبَعثِ، وحكايةُ جانبٍ مِن أقوالِهم الباطِلةِ مع الرَّدِّ عليها.

3- ذِكرُ طَرَفٍ مِن قِصَّةِ نبيِّ اللهِ داودَ عليه السَّلامُ، وابنِه سُلَيمانَ عليه السَّلامُ.

4- ذِكرُ قِصَّةِ قبيلةِ سَبَأٍ، وما آل إليه أمرُهم.

5- إقامةُ الأدِلَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه، ووجوبِ إخلاصِ العبادةِ له.

6- ذِكرُ بَعضِ مشاهِدِ يومِ القيامةِ، والحِوارِ الَّذي يَدورُ بيْنَ التَّابِعينَ والمتبوعينَ.

7- الرَّدُّ على المُترَفينَ الَّذين زَعَموا أنَّ أموالَهم وأولادَهم ستنفَعُهم يومَ القيامةِ.

8- دعوةُ الكافِرينَ إلى التَّفكيرِ والتَّدبُّرِ في شأنِ دَعوةِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم.

9- تهديدُ الكافِرينَ بسُوءِ العاقبةِ إذا ما استمَرُّوا في كُفرِهم وعِنادِهم.

سورةُ سَبَأٍ

الآيتان (1–2)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ

(1)

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ

الْغَفُورُ (2)

غَريبُ الكَلِماتِ:

يَلِجُ: أي: يَدخُلُ، وأصلُ (ولج): يدُلُّ على دُخولِ شَيءٍ.

يَعْرُجُ: أي: يَصعَدُ ويَرقَى، وأصلُ (عرج): يدُلُّ على ارتِقاءٍ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (1).

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ.

أي: الحمدُ[4] التَّامُّ كلُّه لله وَحْدَه، الَّذي يَملِكُ جَميعَ ما في السَّموات وجميعَ ما في الأرضِ، وهو خالِقُهما ومُدَبِّرُهما والمتصَرِّفُ فيهما.

وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ.

أي: ولله وَحْدَه الحَمدُ في الآخِرةِ، فهو المحمودُ أبدًا.

كما قال تعالى: وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [القصص: 70].

(4) الحمدُ هو وصفُ المحمودِ بالكمالِ، واللهُ سبحانه وتعالى يُحمَدُ على ما له مِن الكمالِ الذَّاتيِّ؛ لِما له مِن صفاتِ الكمالِ؛ كالسَّمعِ والبصرِ والعِلمِ والقدرةِ والعَظَمةِ وما أشبَهَها، وهذا لا يكونُ إلَّا لله، ويُحمَدُ على الكمالِ المتعَدِّي للغيرِ بإحسانه وإنعامِه.

واللَّامُ هنا في قوله: لِلَّهِ للاستحقاقِ -فلا أحد يَستحِقُّ أن يُحمَدَ لِذاتِه إلَّا الله- والاختِصاص، فالحمدُ المستغرِقُ لكلِّ المحامِدِ لا يكونُ إلَّا لله عزَّ وجلَّ.

يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: 13، 14).

وقال سُبحانَه عن أهلِ الجنَّةِ: وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [يونس: 10].

وقال تبارك وتعالى عنهم أيضًا: وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ [الزمر: 74].

وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ.

أي: وهو الحكيمُ في أقوالِه وأفعالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه، وفي مُلكِه وتدبيرِ خَلْقِه؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به؛ وهو الخبيرُ الَّذي لا تخفَى عليه خافيةٌ، المطَّلِعُ على سرائرِ الأمورِ وخفاياها.

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (2).

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا.

أي: يَعلَمُ اللهُ كُلَّ ما يَدخُلُ في الأرضِ ويَغيبُ فيها؛ كالمطَرِ، والبُذورِ، والحيواناتِ، والأمواتِ، والكُنوزِ، وغيرِ ذلك؛ ويَعلَمُ كُلَّ ما يَخرُجُ مِن الأرضِ؛ كأنواعِ النَّباتاتِ، والمعادِنِ، والكنوزِ، وغيرِ ذلك، يَعلَمُ عَدَدَه وكيفيَّتَه وصِفاتِه.

وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا.

أي: ويَعلَمُ اللهُ كُلَّ ما يَنزِلُ مِن السَّماءِ؛ كالأمطارِ، والبرَدِ والثُّلوجِ، والصَّواعِقِ، والأرزاقِ، والملائِكةِ؛ ويَعلَمُ كُلَّ ما يَصعَدُ ويَدخُلُ في السَّماءِ؛ كالملائكةِ، والأرواحِ، وأعمالِ العِبادِ.

وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ.

أي: واللهُ هو الرَّحيمُ بعِبادِه، الغفورُ لذُنوبِهم؛ فيَستُرُها عليهم، ويتَجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها.

سورةُ سَبَأٍ

الآيات (3–6)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ
ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (3)
لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي
آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (5) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ
إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (6)

غَريبُ الكَلِماتِ:

يَعْزُبُ: أي: يَغيبُ، وأصلُ (عزب): يدُلُّ على تباعُدٍ وتَنَحٍّ.

مِثْقَالُ ذَرَّةٍ: أي: زِنةُ نملةٍ صغيرةٍ، يُقالُ: هذا على مِثقالِ هذا، أي: على وزنِ هذا، وأصلُ (ثقل): ضِدُّ الخفَّةِ، والذَّرَّةُ هي أصغرُ النَّملِ، وقيل: هي ما يَرفَعُه الرِّيحُ مِن التُّرابِ وأجزاءِ الهواءِ في الكوَّةِ، وأصلُ (ذَرر): يدُلُّ على لَطافةٍ وانتِشارٍ.

سَعَوْا: السَّعيُ: المشْيُ الشَّديدُ، وهو دونَ العَدْوِ، ويُستعمَلُ للجِدِّ في الأمرِ، وشِدَّةِ الحرصِ في العملِ خيرًا كان أو شرًّا، يُقالُ: سعَى في الأمرِ: إذا جَدَّ فيه لقَصدِ إصلاحِه أو إفسادِه.

مُعَاجِزِينَ: أي: مُشاقِّينَ مُعانِدينَ مُغالِبينَ، والمُعاجَزةُ: مُحاوَلةُ عَجْزِ المغالَبِ؛ يُريدُ كلُّ واحدٍ أن يُظهِرَ عجزَ صاحبِه، وأصلُ (عجز): يدُلُّ على ضَعفٍ.

رِجْزٍ: الرِّجزُ: سوءُ العذابِ وأليمُه، وأصل (رجز): يدُلُّ على الاضطِرابِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (3).

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ.

أي: وقال الكُفَّارُ تَكذيبًا وإنكارًا للبَعثِ بعدَ الموتِ: لا تأتينا القيامةُ أبدًا!

قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ: بلى ستأتيكم القيامةُ، وأُقسِمُ برَبِّي لَتأتينَّكم.

عَالِمِ الْغَيْبِ.

أي: العالِمِ بكُلِّ ما يَغيبُ عن خَلْقِه، فلا يَعلَمُ وَقتَ مَجيءِ القيامةِ أحدٌ سِواه.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ عَالِمُ الْغَيْبِ بضَمِّ الميمِ، على أنَّ عالِمُ خبَرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، أو مبتدأٌ وخبَرُه لَا يَعْزُبُ، والجملةُ إمَّا استِئنافيَّةٌ، وإمَّا حاليَّةٌ مِن (رَبِّي).[5]

2- قِراءةُ علَّامِ الْغَيْبِ بتشديدِ اللَّامِ وكَسرِ الميمِ، صيغةُ مُبالَغةٍ مِن صِفةِ العِلمِ.[6]

3- قِراءةُ عَالِمِ الْغَيْبِ بكَسرِ الميمِ، على أنَّ عَالِمِ وصْفٌ لـ (رَبِّي)، أو بدَلٌ منه.[7]

---

(5) قرأ بها نافع، وأبو جعفر، وابن عامر، ورُوَيس.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/349).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 291، 292)، ((معاني القراءات)) للأزهري (2/287)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 581)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: 31).

(6) قرأ بها حمزةُ والكِسائيُّ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/349).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 291، 292)، ((معاني القراءات)) للأزهري (2/287)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 581).

(7) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/349).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 291)، ((معاني القراءات)) للأزهري (2/287)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 581).

قال ابنُ جرير: (الصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك عندَنا أنَّ كُلَّ هذه القراءاتِ الثَّلاثِ قِراءاتٌ مشهورةٌ في قَرَأَةِ الأمصارِ، مُتقارِباتُ المعاني).

((تفسير ابن جرير)) (19/210).

لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ.

أي: لا يَغيبُ عن اللهِ تعالى وَزنُ ذَرَّةٍ سواءٌ كانت في السَّمواتِ أو في الأرضِ؛ فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن خَلقِه، وإن تفرَّقَت أجزاؤُهم وتمزَّقَت وتلاشَت بعدَ موتِهم.

وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ.

أي: ولا يَغيبُ عن اللهِ تعالى أصغَرُ مِن ذلك ولا أكبَرُ منه؛ فكلٌّ مَكتوبٌ مُثبَتٌ في لَوحٍ مَحفوظٍ في غايةِ الإبانةِ والوُضوحِ.

كما قال تعالى: وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [الأنعام: 59].

وقال سُبحانَه: وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [يونس: 61].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [النمل: 75].

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4).

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.

أي: لِيُثيبَ الَّذين آمَنوا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الخالِصةَ للهِ تعالى، الموافِقةَ لِشَرعِه.

أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ.

أي: أولئك لهم مِنَ اللهِ مَغفِرةٌ لِذُنوبِهم، فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، ولهم رِزقٌ حَسَنٌ في كَمِّيَّتِه وكيفيَّتِه.

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (5).

أي: والَّذين اجتَهَدوا في إبطالِ آياتِ اللهِ تعالى، وصَدِّ النَّاسِ عنها، وظَنُّوا أنَّهم يَفوتونَ اللهَ، فلا يَقدِرُ على بَعثِهم ومُعاقبتِهم: أولئك لهم عذابٌ شديدٌ مُوجِعٌ.(8)

---

(8) ممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: آيَاتِنَا: القرآنُ: مقاتلُ بنُ سليمان، والسمرقندي، والنسفي، وجلال الدين المحلي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/524)، ((تفسير السمرقندي)) (3/79)، ((تفسير النسفي)) (3/53)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 563).

وممن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: أدلتُنا وحجَجُنا: ابنُ جريرٍ، ومكِّي، والبغوي، والخازن، والعليمي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (19/212)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (9/5886)، ((تفسير البغوي)) (3/671)، ((تفسير الخازن)) (3/442)، ((تفسير العليمي)) (5/401).

قال ابنُ عثيمين: (والصوابُ: أنَّ آيَاتِنَا هنا أعَمُّ من القرآنِ؛ لأنَّ الساعينَ في آياتِ الله تعالى ليسوا هم مِن هذه الأُمَّةِ فقطْ، حتى في الأُمَمِ السابقةِ فإنَّ فيهم مَن يَسعَى في آياتِ الله تعالى...

في إبطالِها وصدِّ الناسِ عنها، وعلى هذا فنقولُ: إنَّ المُرادَ بآياتِ الله تعالى هنا أعمُّ مِن القرآنِ، يَشمَلُ السَّعيَ في أيِّ آيةٍ مِن آياتِ الله تعالى).

((تفسير ابن عثيمين– سورة سبأ)) (ص: 52).

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ [الجاثية: 11].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

أ- في قَولِه تعالى: مُعَاجِزِينَ قِراءتانِ:

1- قِراءةُ مُعَجِّزِينَ قيل: على معنى: مُثَبِّطِينَ ومُبَطِّئِينَ.(9)

2- قِراءةُ مُعَاجِزِينَ قيل: على معنى: مُعانِدينَ. وقيل: على معنى: ظانِّينَ أنَّهم يُعجِزونَنا، أي: يَفوتونَنا؛ لأنَّهم ظَنُّوا أنَّهم لا يُبعَثونَ.(10)

ب- في قَولِه تعالى: أَلِيمٌ قِراءتانِ:

1- قِراءةُ أَلِيمٌ بالرَّفعِ وصْفًا للعذابِ، أي: عذابٌ أليمٌ مِن رِجزٍ.(11)

---

(9) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، وأبو عَمرٍو.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/327).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (2/185)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 582)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: 53، 54).

(10) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/327).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (2/185)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 582)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: 53، 54).

(11) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، ويعقوبُ، وحفصٌ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/349).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 292)، ((معاني القراءات)) للأزهري (2/288).

2- قِراءةُ أَلِيمٍ بالجرِّ وصْفًا للرِّجْزِ، أي: عذابٌ مِن رِجزٍ أليمٍ.[12]

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (6).

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ.

أي: ويرى أهلُ العِلمِ أنَّ ما أنزَلَ اللهُ إليك -يا مُحمَّدُ- مِنَ القُرآنِ: هو الحَقُّ وحْدَه دونَ ما سِواه.

قال تعالى: أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا [الأنعام: 114، 115].

---

(12) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/349).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 292)، ((معاني القراءات)) للأزهري (2/288).

وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ.

أي: ويَرَونَ أنَّ القُرآنَ يَهدي مَن اتَّبَعه إلى طريقِ اللهِ المَنيعِ الجَنابِ، المنتَقِمِ مِن أعدائِه، والقاهِرِ لكُلِّ شَيءٍ فلا يُغالَبُ؛ الحامِدِ لعبادِه، والمحمودِ مِن خَلقِه.

كما قال تعالى: قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [المائدة: 15، 16].

سورةُ سَبَأٍ

الآيات (7–9)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ
(7) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ
الْبَعِيدِ (8)

أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ
نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (9)

غَريبُ الكَلِماتِ:

مُزِّقْتُمْ: أي: بَلِيتُم، وتفرَّقت أجسادُكم، وأصلُ (مزق): يدُلُّ على تخَرُّقٍ في شَيءٍ.

أَفْتَرَى: الافتراءُ: الاختِلاقُ، وهو ما عَظُمَ مِن الكَذبِ، ومِنه قيل: افترى فُلانٌ على فلانٍ، إذا قذَفَه بما ليسَ فيه، ويُستعمَلُ في القُرآنِ في الكَذِبِ والشِّركِ والظُّلمِ، وأصلُ (فري): قَطْعُ الشَّيءِ، ومِن ذلك: فَرَيْتُ الشَّيءَ أفْريه فَرْيًا، وهو قطْعُه لإصلاحِه، وأفرَيْتُه: إذا أنت قطعتَه للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ.

جِنَّةٌ: أي: جُنونٌ، وأصلُ (جنن): يدُلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ، ومنه المجنونُ؛ لاستتارِ عقلِه، وتَواريه عنه.

نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ: أي: نُغَيِّبْهم فيها، يُقالُ: خسَفَ اللهُ به الأرضَ، أي: غابَ به فيها، وأصلُ (خسف): يدُلُّ على ذَهابٍ وغُؤورٍ.

كِسَفًا: أي: قِطَعًا، وأصلُ (كسف): يدُلُّ على قَطعِ شَيءٍ مِن شَيءٍ.

مُنِيبٍ: أي: رجَّاعٍ تائبٍ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على رُجوعِ الشَّيءِ مرَّةً بعدَ أخرى.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (7).

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: هل نَدُلُّكم -أيُّها النَّاسُ- على رجُلٍ يُنَبِّئُكم بأنَّكم إذا مِتُّمْ وتقَطَّعَت أجسادُكم وتفَرَّقَت في قُبورِكم كُلَّ تقطيعٍ وتفريقٍ: أنَّكم بعدَ تلك الحالِ ستُبعَثونَ أحياءً مِن جَديدٍ؟!

أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (8).

أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ.

أي: هل اختلَق محمَّدٌ ذلك الأمرَ فكَذَب على اللهِ في إخبارِه بأنَّه سيَبعثُنا بعدَ مَوتِنا، أم هو امرؤٌ مجنونٌ يَهْذي بكَلامٍ لا معنى له؟!

بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ.

أي: ليس الأمرُ كما زعَم أولئك المُشرِكونَ؛ فليس هو بمُفتَرٍ على اللهِ تعالى في ذلك، وليس بمَجنونٍ، ولكِنَّ هؤلاء الَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ في العذابِ والذَّهابِ البَعيدِ عن الحَقِّ.

أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (9).

أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

أي: أفلمْ يَرَ أولئك الكُفَّارُ إلى ما بينَ أيديهم وما خَلْفَهم مِنَ السَّماءِ والأرضِ المحيطتَينِ بهما، وأنَّهم حيثما توجَّهوا فلن يَخرُجوا مِن ملَكوتِ اللهِ، وأنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على تعذيبِهم؟!

إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ.

أي: إنْ نشَأْ نُغَيِّبْهم في باطِنِ الأرضِ، أو نُسقِطْ عليهم قِطَعًا مِن السَّماءِ فنُهلِكْهم بسَبَبِ ظُلمِهم؛ فلْيرتَدِعوا عن التَّكذيبِ بالبَعثِ، ولْيَعلَموا كمالَ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

كما قال تعالى: أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ [الملك: 16، 17].

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ.

أي: إنَّ في ذلك لَدَلالةً وعَلامةً ظاهِرةً لكُلِّ عبدٍ تائبٍ إلى اللهِ سُبحانَه، راجعٍ إلى مَعرفتِه وتوحيدِه والإقبالِ على طاعتِه.

سورةُ سَبَأٍ

الآيتان (10–11)

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (10) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (11)

غَريبُ الكَلِماتِ:

أَوِّبِي: أي: رَجِّعي معه التَّسبيحَ، والتَّأويبُ: التَّسبيحُ والتَّرجيعُ.

سَابِغَاتٍ: أي: دُروعًا واسِعةً طويلةً، وأصلُ (سبغ): يدُلُّ على تمامِ الشَّيءِ وكمالِه.

وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ: أي: في النَّسْجِ؛ فلا تَجعَلِ المساميرَ دِقاقًا فتَقْلَقَ، ولا غِلاظًا فتُكَسِّرَ الحِلَقَ، واجعَلْه على القَصدِ وقَدْرِ الحاجةِ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلَغِ الشَّيءِ ونهايتِه، وأصلُ (سرد): يدُلُّ على التَّوالي والتَّتابُعِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (10).

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا.

أي: ولقد آتَينا داودَ مِن عِندِنا ما فضَّلْناه به على غَيرِه، وخَصَصْناه به مِن بينِ النَّاسِ.

يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ.

أي: قُلْنا: يا جِبالُ سَبِّحي مع داودَ، والطَّيرَ أيضًا إذا سَبَّح داودُ رَبَّه؛ فكان يُسَبِّحُ والجبالُ والطَّيرُ تُرَدِّدُ تَسبيحَه!

كما قال تعالى: وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ [الأنبياء: 79].

وقال سبُحانَه: وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ [ص: 17 – 19].

وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ.

أي: وأَلَنَّا لداودَ مَعدِنَ الحديدِ الصُّلْبِ، فهو يتصَرَّفُ فيه بسُهولةٍ.

أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (11).

أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ.

أي: وأمَرْنا داودَ فقُلْنا له: اصنَعْ مِن الحديدِ دُروعًا تامَّةً كاملةً، طويلةً وافيةً.

وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ.

أي: واجعَلْ نَسْجَ الدُّروعِ على مِقدارٍ محدودٍ، ونَسَقٍ مُتناسِبٍ مُحكَمٍ.(13)

كما قال تعالى: وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ [الأنبياء: 80].

وَاعْمَلُوا صَالِحًا.

أي: واعمَلوا عَمَلًا خالِصًا لله، مُوافِقًا لِشَرعِه.

إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

أي: إنِّي بصيرٌ بما تَعمَلونَه مِن أعمالٍ، لا يخفَى علَيَّ شَيءٌ منها.

(13) اختلف السلف في تفسير قوله: ﴿وقدر في السرد﴾ على أقوال: الأول: أن السرد: هو مسمار حلق الدرع.
الثاني: أنه الحلق بعينها.
وقد رجَّح ابنُ جرير (١٩/ ٢٢٤ – ٢٢٦) القول الأول مستندًا إلى أقوال السلف، فقال: «وعنى بقوله: ﴿وقدر في السرد﴾» وقدر المسامير في حلق الدروع حتى يكون بمقدار؛ لا تغلظ المسمار وتضيق الحلقة فتفصم الحلقة، ولا توسع الحلقة وتصغر المسامير وتدقها فتسلس في الحلقة.
وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل".

سورةُ سَبَأٍ

الآيات (12–14)

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (12) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (13) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (14)

غَريبُ الكَلِماتِ:

غُدُوُّهَا شَهْرٌ: أي: تسيرُ بالغَداةِ مَسيرةَ شهرٍ، والغَداةُ: أوَّلُ النَّهارِ، ويُستعمَلُ الغُدُوُّ في المَسيرِ أيَّ وقتٍ كان مِن لَيلٍ أو نهارٍ، وأصلُ (غدو): يدُلُّ على زمانٍ.

وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ: أي: تسيرُ بالعَشِيِّ مَسيرةَ شهرٍ، والرَّواحُ: العَشِيُّ، وهو مِن الزَّوالِ إلى اللَّيلِ، ويُستعمَلُ الرَّواحُ في المسيرِ أيَّ وقتٍ كان مِن ليلٍ أو نهارٍ، وأصلُ (روح): يدُلُّ على سَعةٍ وفُسحةٍ واطِّرادٍ، وسُمِّي العَشيُّ بذلك لِرَوْحِ الرِّيحِ؛ فإنَّها في الأغلَبِ تَهُبُّ بعدَ الزَّوالِ.

الْقِطْرِ: أي: النُّحاسِ.

يَزِغْ: أي: يَعدِلْ ويَخرُجْ، وأصلُ (زيغ): يدُلُّ على مَيلِ الشَّيءِ.

مَحَارِيبَ: جمعُ مِحرابٍ، والمِحرابُ: الغرفةُ، و: المسجدُ، و: كُلُّ موضعٍ مُرتفعٍ، والمِحرابُ أيضًا: مُقَدَّمُ المجلِسِ وأشرفُه.

وَجِفَانٍ: أي: قِصاعٍ كِبارٍ، وأصلُ (جفن): يدُلُّ على شَيءٍ يُطيفُ بشَيءٍ ويَحويه.

كَالْجَوَابِ: الجَوابي جمعُ جابيةٍ، والجابيةُ: الحَوضُ الضَّخمُ الَّذي يُجبَى فيه الماءُ، أي: يُجمَعُ، وأصلُ (جبي): يدُلُّ على جَمعِ الشَّيءِ.

وَقُدُورٍ: جمعُ قِدْرٍ: وهي اسمٌ لِما يُطبَخُ فيه اللَّحمُ.

رَاسِيَاتٍ: أي: ثَوَابِتَ في أماكنِها، تُتركُ لعِظَمِها ولا تُنقَلُ، وأصلُ (رسو): يدُلُّ على ثباتٍ.

دَابَّةُ الْأَرْضِ: أي: الأَرَضةُ، وهي: سُوسٌ يَنخِرُ الخَشَبَ، وأصل (دبب): يدُلُّ على حَرَكةٍ.

مِنْسَأَتَهُ: أي: عَصاه، وأصلُ (نسأ): يدُلُّ على تأخيرِ الشَّيءِ؛ لأنَّ العصا يُبعَدُ بها الشَّيءُ ويُدفَعُ.

خَرَّ: أي: سَقَط على وَجهِه، وأصلُ (خر): يدُلُّ على اضطرابٍ وسُقوطٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (12).

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ.

أي: وسَخَّرنا لسُلَيمانَ الرِّيحَ تجري مِن أوَّلِ النَّهارِ إلى الزَّوالِ مَسافةً تَعدِلُ مَسيرةَ شَهرٍ، وتجري مِنَ الزَّوالِ إلى اللَّيلِ مَسافةً تَعدِلُ مَسيرةَ شَهرٍ.

وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ.

أي: وأجرَينا لسُلَيمانَ عَينَ النُّحاسِ.

وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ.

أي: ومِنَ الجِنِّ مَن يَعمَلُ بيْنَ يَدَيْ سُلَيمانَ فيما يأمُرُه به، وذلك بأمرِ اللهِ وتَسخيرِهم له.

كما قال تعالى: قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ [ص: 35 – 38].

وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ.

أي: ومَن يَخرُجْ مِن الجِنِّ عن أمْرِنا لهم بطاعةِ سُلَيمانَ، نُعَذِّبْه بالنَّارِ.

يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (13).

يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ.

أي: يَعمَلُ الجِنُّ لسُلَيمانَ ما يشاءُ أن يَعمَلوه له مِن محاريبَ.

وَتَمَاثِيلَ.

أي: ويَعمَلون له ما يشاءُ مِن تماثيلَ.

وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ.

أي: وصِحافٍ عَظيمةٍ كالأحواضِ الكبيرةِ والبِرَكِ الواسِعةِ الَّتي يُجمَعُ فيها الماءُ.

وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ.

أي: وقُدورٍ ثوابِتَ في مواضِعِها.

اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا.

أي: وقُلْنا لداوُدَ ووَلَدِه وأهلِه: اعمَلوا -يا آلَ داوُدَ- بطاعةِ اللهِ؛ شُكرًا له على نِعَمِه عليكم.

كما حكَى الله تعالى قَولَ سُلَيمانَ: رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ [النمل: 19].

وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ.

أي: والمُكثِرونَ مِن شُكرِ الله على نِعَمِه قَليلٌ.

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ [البقرة: 243].

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (14).

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ.

أي: فلمَّا جاء سُلَيمانَ أجَلُه الَّذي قضاه اللهُ عليه، ما دَلَّ الجِنَّ على مَوتِه إلَّا الأَرَضةُ[14] حينَ أكلتْ عَصاه الَّتي كان مُتوكِّئًا عليها وقْتَ مَوتِه.

---

(14) قال ابنُ عطية (٧/ ١٧٠): «وقال كثير من المفسرين: ﴿دابَّةُ الأَرْضِ﴾ هي سوسة العود، وهي الأرَضَة، وقرأ ابن عباس والعباس بن المفضل: (الأَرَضِ) بفتح الراء، جمع: أرضة، فهذا يقوي ذلك التأويل».

ثم ذكر في معنى الآية قولين آخرين، فقال: «وقالت فرقة: ﴿دابة الأرض﴾ حيوان مِن الأرض شأنه أن يأكل العود، وذلك موجود، وليس السوسة من دواب الأرض.

وقالت فرقة منها أبو حاتم اللغوي: ﴿الأرض﴾ هنا مصدر: أرضت الأثواب والخشبة؛ إذا أكلتها الأرضة، فكأنه قال: دابة الأكل الذي هو بتلك الصورة على جهة التسوس».

فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ.

أي: فلمَّا سَقَط سُلَيمانُ مَيِّتًا حينَ ضَعُفَت عصاه فسَقَطَت بفِعلِ الأَرَضةِ، ظهَر أمرُ الجِنِّ وانكشَف للنَّاسِ أنَّهم لا يَعلمونَ الغيبَ كما كانوا يَتوهَّمونَ أو يُوهِمونَ النَّاسَ بذلك؛ فلو كانوا يَعلَمونَ الغَيبَ لعَلِموا مَوتَ سُلَيمانَ، ولم يَلبَثوا في عَمَلِهم الشَّاقِّ المُؤلِمِ المُذِلِّ الَّذي كانوا مُسَخَّرينَ فيه لسُلَيمانَ وهم يَحسَبونَه حَيًّا![15]

---

(15) ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: تَبيَّنت الجنُّ للنَّاسِ وانكشَف لهم أمرُهم وظهَرَ، وعلِموا أنَّهم لا يعلمونَ الغيبَ: يحيى بنُ سلام، والنَّحَّاسُ، والسمرقنديُّ، والسمعانيُّ، وابن الجوزي، والقرطبي، والرَّسْعَنيُّ -ونسَبه لأكثرِ المفسِّرينَ-، وابنُ جُزَي، وابنُ عاشور.

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: علِمَتِ الجنُّ وأيقنتْ، وتبَيَّن لهم الأمرُ بأنَّهم لا يعلمونَ الغيبَ: البَغَويُّ، والرازي، والنسفي، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عثيمين.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (3/675)، ((تفسير الرازي)) (25/200)، ((تفسير النسفي)) (3/57)، ((تفسير الخازن)) (3/444)، ((تفسير العليمي)) (5/412)، ((تفسير الشوكاني)) (4/365)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: 121).

وقال ابن كثير: (تبيَّنَتِ الجِنُّ والإنسُ أيضًا أنَّ الجنَّ لا يَعلمون الغَيبَ، كما كانوا يَتوهَّمون ويُوهِمون النَّاسَ ذلك).

((تفسير ابن كثير)) (6/501).

وقال البِقاعي: (تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أي: عَلِمَتْ عِلمًا بيِّنًا لا يَقدِرون معه على تدبيجٍ وتدليسٍ، وانفضح أمرُهم وظهَرَ ظُهورًا تامًّا).

((نظم الدرر)) (15/471).

وقال ابن عطية: (تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ بإسنادِ الفعلِ إليها، أي: بانَ أمْرُها، كأنَّه قال: افتضحَتِ الجِنُّ، أي: للإنسِ. هذا تأويلٌ.

ويحتملُ أن يكونَ قولُه: تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ بمعنى: عَلِمَتِ الجنُّ وتحقَّقَت، ويريدُ بالجِنِّ: جمهورَهم والفَعَلةَ منهم والخَدَمةَ، ويريدُ بالضَّميرِ في كانُوا: رؤساءَهم وكبارَهم؛ لأنَّهم هم الَّذين يَدَّعون عِلمَ الغَيبِ لأتْباعِهم مِن الجنِّ والإنسِ، ويُوهِمونَهم ذلك، قاله قَتادةُ، فيَتيقَّنُ الأتْباعُ أنَّ الرُّؤساءَ لو كانوا عالِمينَ الغيبَ ما لَبِثوا.

وأنْ على التَّأويلِ الأوَّلِ بدَلٌ مِن الجِنُّ، وعلى التَّأويلِ الثَّاني مفعولةٌ مَحْضةٌ).

((تفسير ابن عطية)) (4/412).

سورةُ سَبَأٍ

الآيات (15–19)

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ
طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ
أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا
الْكَفُورَ (17) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ
سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (18) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (19)

قال ابن عطية عقب هذا: «وأكثرَ المفسرون في قصص هذه الآية بما لا صحة له، ولا تقتضيه ألفاظ القرآن، وفي معانيه بُعْدٌ، فاختصرته لذلك».

غَريبُ الكَلِماتِ:

آيَةٌ: أي: عَلامةٌ وحجَّةٌ ودلالةٌ، يُقالُ: آيةُ كذا؛ أي: علامَتُه، وتُطلَقُ أيضًا على العَجيبةِ.

سَيْلَ الْعَرِمِ: العَرِمُ: مِن العَرامةِ: وهي الشِّدَّةُ والكَثرةُ، يعني: السَّيلَ الغالِبَ الشَّديدَ؛ أو يكونُ العَرِمُ اسمًا للسَّيلِ الَّذي كان ينصَبُّ في السَّدِّ، وقيل: العَرِمُ: هو ما بُنِيَ ليُمسِكَ الماءَ، وأصلُ (عرم): يدُلُّ على شِدَّةٍ وحِدَّةٍ؛ لأنَّ الماءَ إذا حُبِسَ كان له عُرامٌ مِن كَثرتِه.

أُكُلٍ: أي: ثَمَرٍ.

خَمْطٍ: أي: شَجرِ الأراكِ، ويُطلَقُ الخَمطُ على الشَّيءِ المُرِّ.

وَأَثْلٍ: الأثْلُ: شَجَرٌ عَظيمٌ يُشبِهُ الطَّرفاءَ، وأصلُ (أثل): يدُلُّ على أصلِ الشَّيءِ.

سِدْرٍ: السِّدْرُ: شَجَرُ النَّبْقِ، وهو قليلُ الغَناءِ عندَ الأكلِ.

أَحَادِيثَ: أي: أخبارًا وعِبَرًا يُتَمَثَّلُ بهم في الشَّرِّ، أو يُتحدَّثُ بهلاكِهم، ولا يُقالُ: جعلْتُه حديثًا في الخَيرِ. وأصلُ (حدث): كَوْنُ الشَّيءِ لم يَكُنْ، والحديثُ مِن هذا؛ لأنَّه كلامٌ يَحْدُثُ منه الشَّيءُ بعدَ الشَّيءِ.

وَمَزَّقْنَاهُمْ: أي: فرَّقْناهم في البلادِ كلَّ تفريقٍ، أي: غايةَ ما يكونُ مِن التَّفريقِ، وتبديدِ الشَّملِ، وقَطَّعْناهم في البلادِ كلَّ مُقطَّعٍ، وأصلُ (مزق): يدُلُّ على تخَرُّقٍ في شَيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15).

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ.

أي: لقد كان لأهلِ سَبَأٍ[16] في مَسكَنِهم علامةٌ بَيِّنةٌ.

جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ.

أي: تلك الآيةُ هي جنَّتانِ عَظيمتانِ[17] عن أيمانِهم وشمائِلِهم.

---

(16) ذكر ابنُ عطية (٧/ ١٧٢ – ١٧٣) أن «سبأ» يراد به القبيل، ثم ذكر اختلافًا في السبب الذي من أجله سموا بهذا على ثلاثة أقوال: الأول: أنه نسبة إلى رجل كان أبًا للقبيل كلهم.

كما في جاء في قول مقاتل وغيره.

الثاني: أن سبأ اسم موضع، سُمي به القبيل.

كما أشار إلى ذلك قول يحيى بن سلام.

الثالث: أن سبأ اسم لامرأة كانت أمَّ القبيل.

(17) قيل: المرادُ أنَّهما بُستانانِ كانا بيْنَ جبلَين عن يمينِ مَن أتاهما وشِماله.

وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (247/19)، ((تفسير ابن كثير)) (507/6)، ((تفسير السعدي)) (ص: 677).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (247/19).

وقيل: لم يُرِدْ بُستانينِ اثنينِ فحَسْبُ، وإنَّما أراد جماعتينِ مِن البَساتينِ: جماعةً عن يمينِ بلدِهم، وأُخرَى عن شِمالِها، وكُلُّ واحدةٍ مِن الجماعتَينِ في تَقارُبِها وتَضامِّها كأنَّها جنَّةٌ واحدةٌ.

كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ.

أي: وقُلْنا لهم: كُلوا ممَّا رزَقَكم ربُّكم، واعمَلوا لله تعالى وَحْدَه وأطيعوه؛ شُكرًا له على ما أنعَمَ به عليكم.

بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ.

أي: هذه بَلدةٌ طَيِّبةٌ، والمُنعِمُ بها رَبٌّ غَفورٌ يَستُرُ الذُّنوبَ، ويَتجاوَزُ عن المؤاخَذةِ بها.

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16).

فَأَعْرَضُوا.

أي: فأعرَضَ أهلُ سَبَأٍ عن توحيدِ اللهِ وطاعتِه وشُكرِه، فعَبَدوا غيرَه، وعَصَوا أمْرَه، وخالَفوا رسُلَه.

وممَّن قال بذلك في الجملةِ: البِقاعي، والعُلَيمي، وابنُ عثيمين.

يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (15/477)، ((تفسير العليمي)) (5/414)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: 128).

وقال الرَّسْعَنيُّ عن هذا القولِ: (هو قولُ عامَّةِ المفسِّرينَ).

((تفسير الرسعني)) (6/229).

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ.

أي: فأرسَلْنا عليهم سَيْلَ العَرِمِ،[18] فدمَّرَ جَنَّتَيهم.

وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ.

أي: وجعَلْنا لهم مكانَ الجنَّتينِ اللَّتَينِ كانت فيهما الثِّمارُ النَّضيجةُ، والمناظِرُ الحَسَنةُ البَهيجةُ: جنَّتَينِ فيهما ثَمَرٌ خَمْطٌ وأثْلٌ،[19] وشَيءٌ قَليلٌ مِن السِّدْرِ.

ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17).

---

(18) اختلف في صفة ما حدث عن ذلك الثقب مما كان فيه خراب جنتيهم على قولين: الأول: أن السيل لما وجد عملًا في السد عمل فيه، ثم فاض الماء على جناتهم، فغرقها، وخرب أرضهم وديارهم.

الثاني: أن الماء الذي كانوا يعمرون به جناتهم سال إلى موضع غير الموضع الذي كانوا ينتفعون به، فبذلك خربت جناتهم.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٩/ ٢٥٤) القول الأول مستندًا إلى ظاهر الآية، فقال: «والقول الأول أشبه بما دل عليه ظاهر التنزيل، وذلك أن الله -تعالى ذِكْرُه- أخبر أنّه أرسل عليهم سيل العرم، ولا يكون إرسال ذلك عليهم إلا بإسالته عليهم، أو على جناتهم وأرضهم، لا بصرفه عنهم».

ذكر ابنُ عطية (٧/ ١٧٦) في قوله تعالى: ﴿العرم﴾ فقال: «وقيل: ﴿العَرِم﴾ صفة للمطر الشديد الذي كان عند ذلك السيل».

(19) «الخمط» هو شجر الأراك، وقد ذكر هذا ابنُ عطية (٧/ ١٧٦)، وزاد قولًا آخر، فقال: «وقيل: الخمط: كل شجر له شوك، وثمرته كريهة الطعم بمرارة، أو حمضة، أو نحوه».

ووجّهه بقوله: «ومنه: تخمَّط اللبن: إذا تغير طعمه».

قال ابن جرير (١٩/ ٢٥٧): «وأما الأثل فإنّه يقال: إنه الطرفاء.

وقيل: إنه شجر شبيه بالطرفاء، غير أنه أعظم منها.

وقيل: إنه السَّمُر».

ثم قال: «ذكر من قال ذلك» وذكر قول ابن عباس ولم يذكر غيره.

وقال ابنُ عطية (٧/ ١٧٦): «والأثل: ضربٌ من الطرفاء.

هذا هو الصحيح».

ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا.

أي: ذلك الَّذي فعَلْناه بأولئك القَومِ هو جزاءٌ مِنَّا لهم؛ بسَبَبِ كُفرِهم.

وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ.

أي: وما نُجازي ذلك الجَزاءَ -جزاءَ العقوبةِ- إلَّا شَديدَ الكُفرِ لنِعَمِ اللهِ.

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (18).

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً.

أي: وكُنَّا قد أنعَمْنا أيضًا على أهلِ سَبأٍ مِن قَبْلُ بأنْ جعَلْنا بيْنَهم وبيْن قُرى الشَّامِ المُبارَكةِ قُرًى مُتَّصِلةً مُتقارِبةً، وهي بيِّنةٌ لا تخفَى؛ لِظُهورِها، فلا يحتاجونَ في طريقِهم لحَملِ زادٍ.[20]

(20) ذكر ابنُ جرير (١٩/ ٢٦١ - ٢٦٣) أن قوله: ﴿ظاهرة﴾ معناه: متواصلة، وأنها قرى عربية.
واستدل على هذا بآثار السلف.
وحكى ابنُ عطية (٧/ ١٧٨ - ١٧٩) اختلافًا في قوله: ﴿قرى ظاهرة﴾، فقال: «واختلف في معنى ﴿ظاهِرَةً﴾، فقالت فرقة: معناه: مستعلية مرتفعة في الآكام والظِّراب، وهي أشرف القرى.
وقالت فرقة: معناه: يظهر بعضها من بعض، فهي أبدًا في قبضة عين المسافر، ولا يخلو من رؤية شيء منها، فهي ظاهرة بهذا الوجه».
ثم رجّح مستندًا إلى لغة العرب أن ﴿ظاهرة﴾ معناها: خارجة عن المدن، فقال: «والذي يظهر لي أن معنى ﴿ظاهِرَةً﴾: خارجة عن المدن، فهي عبارة عن القرى الصغار التي هي في ظواهر المدن، وإنما فصل بهذه الصفة بين القرى الصغار وبين القرى المطلقة التي هي المدن؛ لأن ظواهر المدن ما خرج عنها في الفيافي والفحوص، ومنه قولهم: نزلنا بظاهر فلانة، أي: خارجًا عنها.

وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ.

أي: وجعَلْنا السَّيرَ في تلك القُرى سَيْرًا مُقَدَّرًا.

سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آَمِنِينَ.

أي: وقُلْنا لأهلِ سَبَأٍ: سِيروا في هذه القُرى الظَّاهِرةِ الَّتي بيْنَكم وبيْنَ الشَّامِ لَيالِيَ وأيَّامًا آمِنينَ فيها مِن جَميعِ آفاتِ السَّفَرِ.

فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (19).

فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا.

أي: فقالوا: يا ربَّنا اجعَلْ أسفارَنا بَعيدةً، فيَكونَ بيْنَنا وبيْنَ الشَّامِ فَلَواتٌ!

وقوله: ﴿ظَاهِرَةً﴾ نظير تسمية الناس إياها: البادية والضاحية، ومن هذا قول الشاعر:

فلو شهدتني من قريش عصابة قريش البطاح لا قريش الظواهر

يعني: الخارجين عن بطحاء مكة، وفي حديث الاستسقاء: وجاء أهل الضواحي يشكون: الغرق الغرق».

وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ.

أي: وظَلَموا أنفُسَهم بكُفرِهم باللهِ وبنِعمتِه.

فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ.

أي: فجعَلْناهم أحاديثَ يتحدَّثُ النَّاسُ بأخبارِهم وشأنِ ما جرى لهم مِنَ العُقوبةِ والهلاكِ، ويَضرِبونَ بهم المَثَلَ في التَّشتُّتِ والتَّفرُّقِ.

وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ.

أي: وقَطَّعْناهم في الأرضِ، فتفرَّقوا في نواحٍ كثيرةٍ.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ.

أي: إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ وعَلاماتٍ بَيّنةً لكُلِّ عَظيمِ الصَّبرِ، عَظيمِ الشُّكرِ لله تعالى.

سورةُ سَبَأٍ

الآيات (20–23)

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (20) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ
سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ
(21) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (22) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا
لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ
(23)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

ظَهِيرٍ: أي: مُعِينٍ، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ.

فُزِّعَ: أي: أُزِيلَ الفَزَعُ، وأصلُ (فزع): يدُلُّ على ذُعرٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (20).

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ.

أي: ولقد تحقَّق عليهم[21] ما ظنَّه إبليسُ فيهم، باتِّباعِهم إيَّاه.[22]

---

(21) قال الواحدي: (واختلَف المفسِّرون في هذه الآيةِ؛ فمَذهَبُ ابنِ عبَّاسٍ في روايةِ عطاءٍ: [أنَّ الكنايةَ] في قولِه: صَدَّقَ عَلَيْهِمْ عن أهلِ سبأٍ، وقال في قوله: فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ: يريدُ: قليلًا مِن الَّذين صدَّقوا الأنبياءَ وآمَنوا باللهِ، وعلى هذا فالاستثناءُ مِن سبَأٍ، وهم مَنْ آمَنَ منهم.

ومذهَبُ مُجاهِدٍ أنَّ الكنايةَ: عن النَّاسِ كُلِّهم؛ قال: صَدَّق ظَنَّه على النَّاسِ كُلِّهم إلَّا مَن أطاع اللهَ.

وهو ظاهِرُ مذهَبِ المفسِّرينَ).

((البسيط)) (353/18).

وممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ المرادَ: أهلُ سَبَأٍ-: ابنُ جرير، والسمرقندي، والثعلبي، والبغوي، والألوسي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (269/19)، ((تفسير السمرقندي)) (87/3)، ((تفسير الثعلبي)) (87/22)، ((تفسير البغوي)) (678/3)، ((تفسير الألوسي)) (307/11).

وممَّن اختار القولَ الثَّاني: الرازيُّ، والنيسابوري، والسعدي، وهو ظاهرُ اختيارِ الشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير الرازي)) (202/25)، ((تفسير النيسابوري)) (491/5)، ((تفسير السعدي)) (ص: 678)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (11/2).

قال السعدي: (قال: وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ أي: على جنسِ النَّاسِ، فتكونُ الآيةُ عامَّةً في كلِّ مَن اتَّبَعه).

((تفسير السعدي)) (ص: 678).

وقال الإيجي: (كلامُ السَّلَفِ دالٌّ على أنَّ ضميرَ عَلَيْهِمْ لبني آدَمَ، لا لأهلِ سَبَأٍ خاصَّةً).

((تفسير الإيجي)) (382/3).

وقيل: المرادُ: الكُفَّارُ الَّذين قالوا: هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ [سبأ: 7].

فالضَّميرُ في قوله: عَلَيْهِمْ يعودُ إلى الَّذينَ كفروا مِن قوله: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ ....

واستظهَر هذا القولَ: ابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (182/22).

(22) والمرادُ بظنِّ إبليسَ: هو ما حكاه اللهُ تعالى عنه في عدَّةِ مواضعَ؛ كقولِه: أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا [الإسراء: 62] .

وقوله: قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ [الأعراف: 16، 17].

وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جرير، والبغوي، وابن عطية، والبِقاعي.

يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: 190)، ((تفسير ابن جرير)) (269/19)، ((تفسير البغوي)) (678/3)، ((تفسير ابن عطية)) (417/4)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (490/15).

إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

أي: إلَّا فريقًا مِن المُخلصينَ لله تعالى، الثَّابِتينَ على توحيدِه وطاعتِه.

كما قال سُبحانَه: قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [الحجر: 39، 40].

وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (21).

وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ.

أي: وما كان لإبليسَ على أتْباعِه تسلُّطٌ واستيلاءٌ إلَّا لِنَعلَمَ المؤمِنينَ بالآخرةِ مِنَ الشَّاكِّينَ فيها؛ عِلمًا وُجوديًّا ظاهريًّا يَترتَّبُ عليه الجزاءُ.

كما قال تعالى: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ [الحجر: 42].

وقال الله سُبحانَه: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ [النحل: 99، 100].

قال ابنُ عطية: (ومعنى الآيةِ أنَّ ما قال إبليسُ مِن أنَّه سيَفتِنُ بني آدمَ ويُغويهم، وما قال مِن أنَّ الله لا يجِدُ أكثرَهم شاكرينَ، وغيرَ ذلك: كان ظنًّا منه، فصدَق فيهم).

((تفسير ابن عطية)) (417/4).

وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ.

أي: وربُّك -يا محمَّدُ- على كُلِّ شَيءٍ مِن خَلْقِه رَقيبٌ ومُطَّلِعٌ؛ فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أمورِهم وأعمالِهم وأحوالِهم، وسيُجازي عِبادَه بما عَمِلوه مِن خيرٍ وشَرٍّ.

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (22).

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ مِن قَومِك: ادعُوا مَعبودِيكم الَّذين تزعُمونَ أنَّهم شُرَكاءُ لله؛ لِيَنفَعوكم أو يَضُرُّوكم بشَيءٍ؛ فإنَّهم لن يَقدِروا على ذلك، فهم لا يَملِكونَ وزنَ ذَرَّةٍ في السَّمواتِ ولا في الأرضِ، فكيف يَصِحُّ أن يكونوا آلِهةً؟!

وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ.

أي: وليس لِمَعبوداتِكم أيُّ شراكةٍ مع اللهِ في أيِّ شَيءٍ مِنَ السَّمواتِ أو الأرضِ.

وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ.

أي: وليس لله مِن تلك الآلهةِ المَزعومةِ أيُّ مُعاونٍ يُساعِدُه على شَيءٍ ممَّا يُريدُه سُبحانَه.

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (23).

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ.

أي: ولا تَنفَعُ الشَّفاعةُ عِندَ الله يومَ القيامةِ إلَّا لِمَن أَذِنَ له أن يَشفَعَ.[23]

كما قال تعالى: وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى [النجم: 26].

وقال سُبحانَه: وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ [الزخرف: 85 – 87].

---

(23) ذكر ابنُ عطية (٧/ ١٨٣) في قوله: ﴿إلا لمن أذن له﴾ احتمالين، فقال: «واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾؛ فقالت فرقة: معناه: لمن أذن له أن يشفع فيه.
وقالت فرقة: معناه: لمن أذن له أن يشفع هو».
ثم علّق بقوله: «واللفظ يعمهما؛ لأن الإذن إذا انفرد للشافع فلا شك أن المشفوع فيه معيَّن له، وإذا انفرد للمشفوع فيه فالشافع لا محالة عالم معين لذلك، وانظر أنّ اللام الأولى تشير إلى المشفوع فيه من قوله: ﴿لِمَنْ﴾، تقول: شفعت لفلان».

حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ.

أي: حتَّى إذا كُشِفَ الفزَعُ عن قُلوبِهم وذهَبَ عنها،[24] تساءَلوا عمَّا قاله الرَّبُّ سُبحانَه، فقالوا: ماذا قال ربُّكم؟

كما قال سُبحانَه: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ [الأنبياء: 26 – 29].

---

(24) اختلف السلف فيمن عنى الله بقوله: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾، وفي السبب الذي من أجله فُزِّع عن قلوبهم؛ على أقوال: الأول: أن الذي فُزِّع عن قلوبهم الملائكة، قالوا: وإنما يفزع عن قلوبهم مِن غشية تصيبهم عند سماعهم الله بالوحي.

الثاني: أن الموصوفين بذلك الملائكة، إنما يفزع عن قلوبهم فزعهم مِن قضاء الله الذي يقضيه حذرًا أن يكون ذلك قيام الساعة.

الثالث: أن ذلك من فعل ملائكة السموات إذا مرت بها المعقبات؛ فزعًا أن يكون حدث أمر الساعة.

الرابع: أن الموصوفين بذلك المشركون، قالوا: وإنما يفزع الشيطان عن قلوبهم، قال: وإنما يقولون: ماذا قال ربكم؟ عند نزول المنية بهم.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٩/ ٢٨١) مستندًا إلى السنة القول الأول، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب وأشبهها بظاهر التنزيل القولُ الذي ذكره الشعبي عن ابن مسعود؛ لصحة الخبر الذي ذكرناه عن ابن عباس عن رسول الله – ﷺ – بتأييده».

وبنحوه ابنُ تيمية (٥/ ٢٨٨ – ٢٩٧)، وابنُ كثير (١١/ ٢٨٣ – ٢٨٥)، وكذا ابنُ عطية (٧/ ١٨٣) مستندًا إلى السياق حيث قال: «وبهذا المعنى من ذكر الملائكة في صدر الآيات تتسق هذه الآية على الأولى».

وذكر ابنُ عطية في الآية قولًا خامسًا أنها في جميع العالم، ثم انتقده وقولَ مَن جعلها في المشركين بقوله: «ومن لم يشعر أن الملائكة مشار إليهم من أول قوله: ﴿الذين زعمتم﴾ لم تتصل له هذه الآية بما قبلها، فلذلك اضطرب المفسرون في تفسيرها».

ثم قال منتقدًا هذين التأويلين: «وهذان بعيدان».

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((إذا قضى اللهُ الأمرَ في السَّماءِ ضَرَبَت الملائِكةُ بأجنِحَتِها خُضْعانًا لِقَولِه، كأنَّه سِلْسِلةٌ على صَفْوانٍ،[25] فإذا فُزِّعَ عن قلوبِهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا لِلَّذي قال: الحقَّ، وهو العليُّ الكبيرُ، فيَسمَعُها مُستَرِقُ السَّمعِ؛ ومُستَرِقُ السَّمعِ هكذا بعضُه فوقَ بَعضٍ –ووصَف سُفْيانُ بكَفِّه فحَرَّفَها، وبدَّدَ بيْنَ أصابِعِه– فيَسمَعُ الكَلِمةَ فيُلقيها إلى مَن تحتَه، ثمَّ يُلقيها الآخَرُ إلى مَن تحتَه، حتَّى يُلقيَها على لِسانِ السَّاحِرِ أو الكاهِنِ، فرُبَّما أدرك الشِّهابُ قبْلَ أن يُلقيَها، ورُبَّما ألقاها قبْلَ أن يُدرِكَه، فيَكذِبُ معها مئةَ كَذْبةٍ، فيُقالُ: أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيُصَدَّقُ بتلك الكَلِمةِ الَّتي سَمِعَ مِن السَّماءِ)).[26]

قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ.

أي: قالت الملائِكةُ: قال اللهُ القولَ الحقَّ، وهو العَليُّ بذاتِه وصفاتِه، وقَهرِه لكُلِّ شَيءٍ مِن خَلْقِه؛ فلا شَيءَ أعلَى منه، ومِن عُلُوِّه أنَّ حُكمَه يعلو وتُذعِنُ له جميعُ الخلائِقِ؛ مُؤمِنُهم وكافِرُهم، ومِن عُلُوِّه أنَّه لا يقولُ غيرَ الحَقِّ؛ وهو الكبيرُ الَّذي لا شَيءَ أكبَرُ منه، ولا يُعارِضُه أحدٌ في شَيءٍ مِن حُكمِه؛ فله أن يَحكُمَ في عبادِه بما يشاءُ، ويَفعَلُ ما يُريدُ.

---

(25) الصَّفْوانُ: هو الحَجَرُ الأملَسُ.
يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (192/7).

(26) رواه البخاري (4800).

سورةُ سَبَأٍ

الآيات (24–30)

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ (24) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا
ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (26) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ
اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ (28) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (29) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا
تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (30)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

أَجْرَمْنا: أي: اكتَسَبْنا، والجُرْمُ: الذَّنبُ العظيمُ، وأصلُ (جرم): يدُلُّ على قَطعٍ؛ لأنَّ الذَّنْبَ كَسْبٌ، والكَسبَ اقتِطاعٌ.

يَفْتَحُ: أي: يَحكُمُ ويَقضي، ويُسمَّى الحاكِمُ فتَّاحًا، والفَتْحُ: إزالةُ الإغلاقِ والإشكالِ، وأصلُ (فتح): يدُلُّ على خِلافِ الإغلاقِ.

كَافَّةً: أي: عامَّةً، وهو اسْمٌ للجملةِ، مِن الكَفِّ، كأنَّهم كفُّوا باجتماعِهم عن أن يخرُجَ مِنْهُم أحدٌ، ومعنى كافَّةً: الإحاطةُ، ويُقالُ للجماعةِ: الكافَّةُ، وقيل: أي: تَكُفُّهم وتَردَعُهم، وقيل: أي: كافًّا لهم عن المعاصي، والهاءُ فيه للمُبالَغةِ، وأصلُ الكَفِّ: المنعُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24).

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: قُلْ-يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: مَن يَرزُقُكم مِنَ السَّمَواتِ بإنزالِه المطَرَ، وتسخيرِه الشَّمسَ والقَمَرَ والنُّجومَ وغيرَها؛ لِمَنافِعِكم، ويَرزُقُكم مِنَ الأرضِ بإخراجِه منها أنواعَ النَّباتِ والثِّمارِ، والمياهِ والمعادِنِ، وغَيرِها ممَّا فيه مَصالِحُكم؟

قُلِ اللَّهُ.

أي: قُلِ: اللهُ وحْدَه مَن يَرزُقُكم مِنَ السَّمواتِ والأرضِ، فهو إذَنْ مَن يجِبُ أن يُعبَدَ وحْدَه؛ فلِمَ تَعبُدونَ معه مَن لا يَرزُقُكم شَيئًا؟!

وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

أي: ما نحن وأنتم على أمرٍ واحدٍ؛ فأحدُ الفريقَينِ مِنَّا مُهتَدٍ، والآخَرُ ضالٌّ ضلالًا مُبينًا.(27)

قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25).

قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: لا تُسأَلونَ عن ذُنوبِنا.

كما قال تعالى: وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ [يونس: 41].

---

(27) رجَّح ابنُ جرير (١٩/ ٢٨٦) أن معنى قوله تعالى: ﴿وإنّا أوْ إيّاكُمْ لَعَلى هُدًى أوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾: «أن ذلك أمْرٌ مِن الله نبيَّه بتكذيب مَن أمره بخطابه بهذا القول بأحسن التكذيب، كما يقول الرجل لصاحبٍ له يخاطبه وهو يريد تكذيبَه في خبرٍ له: أحدنا كاذبٌ.

وقائل ذلك يعني صاحبَه لا نفْسَه؛ فلهذا المعنى صيَّر الكلام بـ ﴿أو﴾».

وذكر ابنُ عطية (٧/ ١٨٥ - ١٨٦) أن معنى: ﴿وإنّا أوْ إيّاكُمْ﴾: «تلطُّف في الدعوى والمحاورة، والمعنى كما تقول لمن خالفك في مسألة: أحدنا يخطئ.

أي: تثبت وتنبه، والمفهوم من كلامك أن مخالفك هو المخطئ، وكذلك هذا معناه ﴿لَعَلى هُدىً أوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ فَلْتَتَبَيَّنه، والمقصد: أن الضلال في حيز المخاطبين، وحذف أحد الخبرين لدلالة الباقي عليه».

ثم نقل عن أبي عبيدة أن ﴿أو﴾ «في الآية بمعنى واو النَّسق، والتقدير: وإنا وإيّاكم لعلى هدًى أو في ضلالٍ مبين».

ثم انتقده مستندًا إلى ظاهر اللفظ قائلًا: «وهذا القول غير مُتَّجه، واللفظ لا يساعده».

ثم علَّق بقوله: «وإن كان المعنى -على كل قول- يقتضي أنّ الهُدى في حيِّز المؤمنين، والضلال في حيِّز الكفرة».

وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ.

أي: ولا نُسأَلُ نحن عن أعمالِكم.

ثمَّ حذَّرهم وأنذَرهم عاقبةَ أمرِهم؛ إذْ أمَرَ رسولَه - ﷺ - أن يقولَ لهم:

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (26).

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: يَجمَعُ بيْنَنا ربُّنا ثمَّ يَقضي بيْنَنا وبيْنَكم بالعَدلِ، فيَتبيَّنُ المُهتدي مِنَّا والضَّالُّ، ويُثيبُ اللهُ المُستَحِقَّ للثَّوابِ، ويُعاقِبُ المُستَحِقَّ للعِقابِ.

وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ.

أي: واللهُ هو الحاكِمُ بيْنَ عبادِه بالعَدلِ والحَقِّ، العليمُ بأعمالِهم وأحوالِهم؛ فلا تخفَى عليه منهم خافيةٌ.

قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27).

قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ.

أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- للمُشرِكِينَ: أرونيَ الَّذين صيَّرتُموهم لله شُرَكاءَ في العبادةِ بزَعمِكم.[28]

كما قال تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا [فاطر: 40].

كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

أي: ارتَدِعوا وانزَجِروا؛ فليس الأمرُ كما زَعمتُم مِن أنَّ لله شُرَكاءَ، بل هو المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له، العزيزُ في انتِقامِه ممَّن أشرك به، الغالِبُ القاهِرُ لكُلِّ شَيءٍ، الممتنعُ عليه كلُّ عيبٍ ونقصٍ، وهو الحكيمُ في شَرعِه وأفعالِه وأقوالِه وتدبيرِ خَلقِه؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به، فكيف يكونُ له شريكٌ مَن هو متَّصِفٌ بهاتينِ الصِّفَتينِ المنافيَتَينِ لذلك؟!

---

(28) ذكر ابنُ عطية (٧/ ١٨٦) أن الرؤية في: ﴿قُلْ أَرُونِيَ﴾ يحتمل: أن تكون رؤية قلب؛ فيكون قوله: ﴿شُرَكَاءَ﴾ مفعولًا ثالثًا، ورجَّحه قائلًا: «وهذا هو الصحيح، أي: أروني بالحجة والدليل كيف وجْه الشركة».

ونقل عن فرقة: بأنها رؤية بصر، و﴿شُرَكَاءَ﴾ حال من الضمير المفعول بـ ﴿أَلْحَقْتُمْ﴾ والعائد على ﴿الَّذِينَ﴾، ثم انتقده مستندًا إلى الدلالة العقلية قائلًا: «وهذا ضعيف؛ لأن استدعاء رؤية العين في هذا لا غناء له».

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (28).

أي: أرسَلْناك –يا مُحَمَّدُ– للنَّاسِ أجمَعينَ مِنَ العَرَبِ وغيرِهم، مُبَشِّرًا مَن أطاعك، ومُنذِرًا مَن عصاك وخالَفَك، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ.

كما قال اللهُ تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا [الأعراف: 158].

وقال سُبحانَه: لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا [الكهف: 2 – 4].

وقال عزَّ وجَلَّ: تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا [الفرقان: 1].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِي اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((أُعطِيتُ خَمسًا لم يُعطَهُنَّ أحدٌ قَبْلي: نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ،[29] وجُعِلَت لي الأرضُ مَسجِدًا وطَهورًا، فأيُّما رجُلٍ مِن أمَّتي أدركَتْه الصَّلاةُ فلْيُصَلِّ، وأُحِلَّت لِيَ المغانِمُ ولم تَحِلَّ لأحَدٍ قَبْلي، وأُعطيتُ الشَّفاعةَ، وكان النَّبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثتُ إلى النَّاسِ عامَّةً)).[30]

---

(29) نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ: أي: نصَرني ربِّي على أعدائي بخَوفِهم مِنِّي في قَدرِ مَسيرةِ شَهرٍ بيْني وبيْنَهم مِن قُدَّامٍ أو وراءٍ، فإذا كان بيْنَه وبيْنَهم مسيرةُ شَهرٍ هابوا وفزِعوا منه صلَّى الله عليه وسلَّمَ.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3674/9).

(30) رواه البخاري (335) واللفظ له، ومسلم (521).

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (29).

أي: ويقولُ المُشرِكونَ مِن جَهلِهم: متى يجيءُ هذا الوَعدُ إنْ كنتم صادِقينَ في دَعواكم؟(31)

كما قال تعالى: يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ [الشورى: 18].

قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (30).

أي: قُلْ لهم –يا مُحمَّدُ–: لكم ميعادُ يومٍ يجيئُكم في وَقتِه المحدَّدِ بلا زيادةٍ ولا نَقصٍ، فإذا جاء لا يُؤخَّرُ ساعةً ولا يُقدَّمُ.

(31) بيَّن ابنُ عطية (٧/ ١٨٧) أنّ الآية في استعجال الكفار ليوم القيامة على سبيل الاستهزاء، ثم ذكر أنّ الآية تحتمل أن يكون استعجال الكفرة لعذاب الدنيا، ويكون الجواب عن ذلك أيضًا، ثم علَّق على ذلك بقوله: «ولم يَجْرِ للقيامة ذِكْرٌ على هذا التأويل».

سورةُ سَبَأٍ

الآيات (31-33)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ
مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (31) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ
الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (32) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ
مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا
الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (33)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

مَوْقُوفُونَ: أي: محبوسونَ للحسابِ يومَ القيامةِ، وأصل (وقف): يدُلُّ على تمكُّثٍ في شَيءٍ.

يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ: أي: يتلاوَمون؛ يُحاوِرُ بعضُهم بعضًا، وأصلُ (رجع): يدُلُّ على ردٍّ وتَكرارٍ.

أَنْدَادًا: أي: أمثالًا، ونُظَراءَ، وشُرَكاءَ، وأصلُ (ندد): يدُلُّ على شُرودٍ وفِراقٍ.

بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ: أي: مَكْرُكم في اللَّيلِ والنَّهارِ، والمكرُ: الاحتيالُ والخِداعُ، وصَرْفُ الغيرِ عمَّا يَقصِدُه بحيلةٍ.

الْأَغْلَالَ: جمعُ غُلٍّ، والغُلُّ: مختصٌّ بما يُقيَّدُ به فيَجعلُ الأعضاءَ وسطَه، أو: هو طوقٌ تُشَدُّ به اليدُ إلى العُنقِ، أو حَلْقةٌ مِن حديدٍ أو غيرِه تُحيطُ بالعُنقِ تُناطُ بها سِلسلةٌ مِن حديدٍ، وأصلُ (غلل): تدرُّعُ الشَّيءِ وتوسُّطُه.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (31).

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ.

أي: وقال الَّذين كَفروا: لن نُؤمِنَ بهذا القرآنِ الَّذي جاء به محمَّدٌ، ولا بما بينَ يدَيه.

وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ.

أي: ولو ترى المُشرِكينَ يومَ القيامةِ وهم محبوسونَ في مَوقِفِ الحِسابِ، يحاوِرُ بَعضُهم بَعضًا باللَّومِ والخِصامِ والعِتابِ، بعدَ أن كانوا في الدُّنيا أخِلَّاءَ مُتحابِّينَ مُتناصِرينَ؛ لَرأيتَ أمرًا عَظيمًا، وشأنًا عجيبًا!

يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ.

أي: يَقولُ الأتْباعُ المُشرِكونَ-الَّذين كانوا في الدُّنيا مُستَضعَفينَ- لِرُؤسائِهم وكُبَرائِهم المتبوعينَ: لولا أنَّكم أضلَلْتُمونا في الدُّنيا لَكُنَّا مِنَ المؤمِنينَ.

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (32).

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ.

أي: قال القادةُ المُشرِكونَ لأتْباعِهم المُستَضعَفينَ: أنحن مَنَعْناكم وصرَفْناكم عن قَبولِ الحَقّ بعدَما جاءَكم مِن عندِ اللهِ؟!

بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ.

أي: ليس الأمرُ كذلك، فنحنُ لم نُكرِهْكم على الكُفرِ، وإنَّما كُنتُم في الدُّنيا عريقينَ في الإجرامِ، باختيارِكم الكُفرَ وإيثارِه على الإيمانِ.

وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (33).

وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

أي: وقال الأتْباعُ المُستَضعَفونَ لِرُؤسائِهم: ليس الأمرُ كما ذكَرتُم، وإنَّما احتيالُكم وخِداعُكم لنا، ومُلازمتُكم تزيينَ الباطِلِ وتقبيحَ الحَقّ ليلًا ونهارًا: هو ما صَدَّنا عن الهدى، ونفَّرَنا عن الحَقّ.

إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا.

أي: حينَ تأمُرونَنا أن نَكفُرَ باللهِ، ونجعَلَ له أمثالًا وأشباهًا ونُظَراءَ وشُرَكاءَ.

وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ.

أي: وأسَرَّ جميعُ المُشركِينَ - (32)مِن الأتْباعِ المُستَضعَفينَ والمتبوعِينَ المُستَكبِرينَ- في أنفُسِهم شِدَّةَ النَّدَمِ حينَ رأوْا عذابَ النَّارِ، فزال عنهم ما احتَجَّ به بعضُهم على بعضٍ لِيَنجوَ مِن العذابِ، وعَلِموا أنَّهم مُستَحِقُّونَ له، وتمنَّوا أنْ لو كانوا على الحَقِّ، وأنَّهم ترَكوا الباطِلَ الَّذي أوصَلَهم إلى عذابِ اللهِ تعالى!

وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا.

أي: وجعَلْنا القُيودَ في أعناقِ الكافِرينَ جميعًا مِن الأتْباعِ والمتبوعينَ.

كما قال تعالى: وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [الرعد: 5].

---

(32) نقل ابنُ عطية (٧/ ١٨٩) عن بعض الناس أن ﴿وَأَسَرُّوا﴾ بمعنى: «أظهروا، وهي من الأضداد».
ثم علَّق بقوله: «وهذا كلام مَن لم يعتبر المعنى، أمّا نفس الندامة فلا تكون إلا مُسْتَسَرَّة ضرورة، وأما الظاهر عنها فغيرها، ولم يثبت قط في لغة أن» أسَرَّ «من الأضداد».

هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

أي: لا يُجزَى الكافِرونَ إلَّا بحَسَبِ ما كانوا يَعمَلونَه في الدُّنيا مِن أعمالٍ خَبيثةٍ.(33)

(33) قال الشوكاني: (هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أي: إلَّا جزاءَ ما كانوا يعمَلونه مِن الشِّركِ باللهِ، أو إلَّا بما كانوا يَعملونَ على حذفِ الخافِضِ).

((تفسير الشوكاني)) (4/378).

وقال ابن كثير: (هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أي: إنَّما نُجازيكم بأعمالِكم كلٌّ بحَسَبِه؛ للقادةِ عذابٌ بحسَبِهم، وللأتباعِ بحسَبِهم قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ [الأعراف: 38]).

((تفسير ابن كثير)) (6/520).

وقال ابن عاشور: (اعلَمْ أنَّ كَوْنَه مُماثِلًا في المِقدارِ أمرٌ لا يعلَمُه إلَّا مُقَدِّرُ الحقائقِ والنِّيَّاتِ، وأمَّا كونُه وِفاقًا في النَّوعِ فلأنَّ وَضْعَ الأغلالِ في الأعناقِ مَنعٌ مِن حرِّيَّةِ التَّصرُّفِ في أنفُسِهم؛ فناسَبَ نوعُه أن يكونَ جزاءً على ما عبَّدوا به أنفُسَهم لأصنامِهم... وما تقَبَّلوه مِن استِعبادِ زُعَمائِهم وكُبَرائِهم إيَّاهم).

((تفسير ابن عاشور)) (22/211).

سورةُ سَبَأٍ

الآيات (34-39)

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (34) وَقَالُوا نَحْنُ
أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (35) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (36) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا
مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (37)
وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (38) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ
الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ
(39)

غَريبُ الكَلِماتِ:

مُتْرَفُوهَا: أي: المُنَعَّمونَ فيها، الَّذين قد أبطَرَتْهم النِّعمةُ وسَعَةُ العَيشِ، وأصلُ (ترف): يدُلُّ على التَّوسُّعِ في النِّعمةِ.

يَبْسُطُ: أي: يُوَسِّعُ ويُكَثِّرُ، وأصلُ (بسط): يدُلُّ على امتِدادِ شَيءٍ.

وَيَقْدِرُ: أي: يُضَيِّقُ، ويُقَتِّرُ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونِهايتِه، كأنَّما جُعِل رِزقُه بقَدْرٍ يَسيرٍ.

زُلْفَى: أي: قُرْبى ومَنزِلةً، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على اندفاعٍ وتقدُّمٍ في قُرْبٍ إلى شَيءٍ.

الضِّعْفِ: أي: التَّضعيفِ والزِّيادةِ، وأصلُ (ضعف): يدُلُّ على أن يُزادَ الشَّيءُ مِثلَه.

الْغُرُفَاتِ: أي: المنازِلِ الرَّفيعةِ والعاليةِ في الجنَّةِ، والغَرْفُ: رفْعُ الشَّيءِ وتناوُلُه.

يُخْلِفُهُ: أي: يُعطيكم خلفَه وبدَلَه، وأصلُه: مجيءُ شَيءٍ بعدَ شَيءٍ يقومُ مَقامَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (34).

أي: وما أرسَلْنا في قَريةٍ مِن رَسولٍ يُنذِرُ أهلَها عذابَ اللهِ إلَّا قال الأغنياءُ المترَفونَ منهم: إنَّا كافِرونَ بما أرسَلَكم اللهُ به!

وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (35).

أي: وقالوا أيضًا: نحن أكثَرُ منكم أموالًا وأولادًا، ولن يُعَذِّبَنا اللهُ؛ فلو لم يكُنْ راضيًا عنَّا وعن دينِنا وأعمالِنا، لَما أحسَنَ إلينا وبسَطَ لنا الرِّزقَ![34]

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (36).

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لأولئك الكافِرينَ: إنَّ رَبِّي يُوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن خَلْقِه، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ منهم؛ فهو المتصَرِّفُ في تدبيرِ خَلقِه بحَسَبِ مَشيئتِه وحِكمتِه، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ.

---

(34) ذكر ابنُ عطية (٧/ ١٨٩) احتمالًا آخر، فقال: «يحتمل أن يكون الضمير في ﴿قالوا﴾ لقريش، ويكون كلام المترفين قد تقدم، ثم تطَّرد الآية بعد».

وذكر أن معنى: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالا وأَوْلادًا وما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾: «الاحتجاج بأن الله لم يُعْطِنا هذا وقدَّره لنا إلا لرضاه عنّا وعن طريقتنا، ونحن ممن لا يُعَذَّب البَتَّة؛ إذ الله -الذي تزعم أنت علمَه بجميع الأشياء وإحاطته- قد قدَّر علينا النِّعم، فهو إذًا راضٍ عنّا».

ثم ذكر عن بعض المفسرين أن معنى: ﴿وما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي: بالفقر، وانتقده قائلًا: «وهذا ليس كالأول في القوة».

ثمَّ صرَّح بإبطالِ ما قالوه، وأكْذَبهم فيه، فقال:

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (37).

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى.

أي: وليستْ أموالُكم ولا أولادُكم بالَّتي تُقرِّبُ إلى الله قُرْبَى، ولا تَزيدُكم عِندَنا رِفعةً ودَرَجةً؛ فليست بدَليلٍ على محبَّتِنا لكم، واعتِنائِنا بكم.[35]

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله – ﷺ –: ((إنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إلى صُوَرِكم وأموالِكم، ولكِنْ يَنظُرُ إلى قُلوبِكم وأعمالِكم)).[36]

إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا.

أي: لكنِ المؤمِنونَ الَّذين عَمِلوا الصَّالحاتِ يُقَرِّبُهم عِندَنا إيمانُهم وعمَلُهم الصَّالحُ؛ فيُضاعِفُ اللهُ لهم جزاءَهم.

---

(35) نقل ابنُ جرير (١٩/ ٢٩٧) عن بعضهم أنّ معنى قوله تعالى: ﴿وما أمْوالُكُمْ ولا أوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إلا مَن آمَنَ وعَمِلَ صالِحًا﴾: «وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زُلفى، إلا من آمن وعمل صالحًا، فإنه تُقَرِّبهم أمواهم وأولادهم –بطاعتهم الله في ذلك، وأدائهم فيه حقَّه إلى الله– زُلفى، دون أهل الكفر بالله».

وذكر قول ابن زيد، ثم وجَّه هذا المعنى بقوله: «ف ﴿من﴾ على هذا التأويل نصبٌ بوقوع» تقرب «عليه».

(36) رواه مسلم (2564).

وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آَمِنُونَ.

أي: وهم مُقيمونَ في غُرُفاتِ الجنَّةِ، آمِنونَ مِن كُلِّ شَرٍّ وأذًى.

كما قال تعالى: أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا [الفرقان: 75].

وقال سُبحانَه: لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ [الزمر: 20].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ – ﷺ – قال: ((إنَّ أهلَ الجنَّةِ لَيَتراءَونَ أهلَ الغُرَفِ مِن فَوقِهم كما تتراءَونَ الكوكَبَ الدُّرِّيَّ الغابِرَ[37] مِن الأُفُقِ مِنَ المَشرِقِ أو المَغرِبِ؛ لِتَفاضُلِ ما بيْنَهم، قالوا: يا رسولَ اللهِ، تلك منازِلُ الأنبياءِ لا يَبلُغُها غيرُهم؟! قال بلى والَّذي نفْسي بيَدِه، رِجالٌ آمَنوا باللهِ، وصَدَّقوا المُرسَلينَ)).[38]

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ في الجنَّةِ غُرفةً يُرى ظاهِرُها مِن باطِنِها، وباطِنُها مِن ظاهِرِها! فقال أبو موسى الأشعريُّ: لِمَن هي يا رَسولَ اللهِ؟ قال: لِمَن ألانَ الكلامَ، وأطعَمَ الطَّعامَ، وبات لله قائمًا والنَّاسُ نيامٌ)).[39]

---

(37) الكوكَبَ الدُّرِّيَّ الغابِرَ: أي: الكوكَبَ الشَّديدَ الإضاءةِ، الباقيَ في الأُفقِ بعدَ انتشارِ ضَوءِ الفَجرِ.
يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (285/5).

(38) رواه البخاري (3256)، ومسلم (2831) واللَّفظُ له.

(39) أخرجه أحمد (6615) واللفظ له، والطبراني (80/14) (14687)، والحاكم (270).

وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (38).

أي: والَّذين يجتَهِدونَ في إبطالِ آياتِ اللهِ تعالى وصَدِّ النَّاسِ عنها يحسَبونَ أنَّهم يفوتوننا بأنفُسِهم ويُعجِزوننا: أولئك سيُحضَرونَ العذابَ في جهنَّمَ، ويُعذَّبونَ فيها.

كما قال اللهُ تعالى: وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ [الحج: 51].

وقال سُبحانَه: أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ [القصص: 61].

وقال عزَّ وجلَّ: وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ [الروم: 16].

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (39).

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ.

صحَّحه على شرط الشيخينِ الحاكِمُ، وحَسَّن إسنادَه المُنْذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (289/1)، والهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (257/2)، والبُوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (232/8) وقال: (وله شاهِدٌ)، وقال الألباني في ((صحيح الترغيب والترهيب)) (617): (حسَنٌ صحيحٌ).

أي: قُلْ –يا مُحَمَّدُ–: إنَّ رَبِّي يُوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضَيِّقُه على مَن يشاءُ مِنهم؛ بحَسَبِ مَشيئتِه وحِكمتِه.

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ.

أي: وما أنفَقْتُم مِن نَفَقةٍ في الخَيرِ والبِرِّ فإنَّ اللهَ يُخلِفُ عليكم ما أنفَقْتُم، فيُعَوِّضُكم بدَلَه.

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ الله – ﷺ – قال: ((قال اللهُ عزَّ وجلَّ: أنفِقْ أُنفِقْ عليك)).[40]

وعنه أيضًا رَضِيَ اللهُ عنه، عن رسولِ الله – ﷺ – قال: ((ما نقَصَتْ صَدَقةٌ مِن مالٍ)).[41]

وعنه أيضًا رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((ما مِن يومٍ يُصبِحُ العِبادُ فيه إلَّا مَلَكانِ يَنزِلانِ، فيقولُ أحَدُهما: اللَّهمَّ أعطِ مُنفِقًا خَلَفًا، ويقولُ الآخَرُ: اللهُمَّ أعطِ مُمسِكًا تَلَفًا)).[42]

---

(40) رواه البخاري (4684)، ومسلم (993).
(41) رواه مسلم (2588).
(42) رواه البخاري (1442)، ومسلم (1010).

وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ.

أي: واللهُ هو خيرُ مَن يَرزُقُ عبادَه، ويُعطيهم مِن خزائِنِه الَّتي لا تَفنى.

سورةُ سَبَأٍ

الآيات (40–42)

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (40) قَالُوا سُبْحَانَكَ
أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (41) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا
تُكَذِّبُونَ (42)

تَفسيرُ الآياتِ:

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (40).

أي: ويومَ يَحشُرُ اللهُ المُشرِكينَ فيَجمَعُهم يومَ القيامةِ جميعًا، ثمَّ يَقولُ للمَلائِكةِ: أهؤلاء المُشرِكونَ كانوا يَعبُدونكم مِن دوني؟

قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (41).

قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ.

أي: قال الملائِكةُ: نُنَزِّهُك -يا ربَّنا- تنزيهًا عن أن يَستَحِقَّ العبادةَ أحَدٌ سِواك، ونحن بُرآءُ مِن المُشرِكينَ ومِن عبادتِهم، وأنت وليُّنا الَّذي نَتولَّاه ونُطيعُه ونَعبُدُه وَحدَه!

بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ.

أي: بل كان هؤلاء المُشرِكونَ يَعبُدونَ الجِنَّ، وأكثَرُهم مُؤمِنونَ بالجِنِّ؛ فيُصَدِّقونَهم ويُطيعونَهم، ويُذْعِنونَ لهم، ويَنقادونَ إليهم.

كما قال تعالى: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ [يس: 60 - 62].

فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (42).

فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا.

أي: فاليومَ لا يَقدِرُ بَعضُكم على نفعِ بَعضٍ أو ضرِّه؛ فالأمرُ كلُّه لله.

وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ.

أي: ونَقولُ لِمَنْ وَضَعوا العبادةَ في غَيرِ مَوضِعِها، وجَعَلوها لغيرِ مَن تنبغي أن تكونَ له وَحْدَه: ذُوقوا عذابَ النَّارِ الَّتي كنتُم تُكَذِّبونَ بها في الدُّنيا.

سورةُ سَبَأٍ

الآيات (43–45)

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ
وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ
(43) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (44) وَكَذَّبَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (45)

غَرِيبُ الكَلِمَاتِ:

يَصُدُّكُمْ: أي: يَصرِفكم ويَمنَعكم، والصَّدُّ والصُّدُودُ: الانصرافُ عن الشَّيءِ والامتناعُ، وأيضًا: الصَّرفُ والمنعُ، وأصلُ (صدد): يَؤولُ إلى إعراضٍ وعُدولٍ.

إِفْكٌ: أي: كَذِبٌ، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ شَيءٍ، وصَرفِه عن جِهتِه.

مُفْتَرًى: أي: مُختَلَقٌ، والافتِراءُ: اختِلاقُ الكَذِبِ، وأصلُه مِن: (فَرْيِ الأديمِ)، وهو: قَطْعُه، فقيل للكَذِبِ: افتراءٌ؛ لأنَّ الكاذِبَ يقطَعُ به على التَّقديرِ، مِن غيرِ تحقيقٍ.

يَدْرُسُونَهَا: أي: يَقرؤُونَها، والدَّرْسُ: الطَّرِيقُ الخفيُّ، يقالُ: دَرَسْتُ القرآنَ وغيرَه؛ وذلك أنَّ الدَّارسَ يَتتبَّعُ ما كان قَرَأ، كالسَّالِك للطَّريقِ يَتتبَّعُه، وأصلُ (درس): يدُلُّ على خَفاءٍ وخفضٍ وعَفاءٍ.

مِعْشَارَ: أي: عُشْرَ، وأصلُ (عشر) هنا: عددٌ معلومٌ، ثمَّ يُحمَلُ عليه غيرُه.

نَكِيرِ: أي: إنكاري وتَغْييري وعُقوبَتي، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المعرفةِ الَّتي يَسْكُنُ إليها القلبُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (43).

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ.

أي: وإذا تُتلى على مُشرِكي قُرَيشٍ آياتُ القُرآنِ، والحالُ أنَّها واضِحةُ الدَّلالةِ في ألفاظِها ومَعانيها، وأنَّها حَقٌّ مِن عندِ اللهِ؛ قالوا عندَ سَماعِهم لها: ما مُحمَّدٌ إلَّا رَجُلٌ يريدُ بدَعوتِكم أن يَصرِفَكم عن عبادةِ الأصنامِ والأوثانِ الَّتي كان يَعبُدُها آباؤُكم!

وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: ما هذا الَّذي يُتْلى علينا إلَّا كَذِبٌ مُختلَقٌ!

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ.

أي: وقال الكُفَّارُ لَمَّا جاءَهم القُرآنُ: ما هذا إلَّا سِحرٌ واضِحٌ.

كما قال تعالى: بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ [الزخرف: 29، 30].

وقال سُبحانَه: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ [الأحقاف: 7].

وَمَا آَتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (44).

أي: وما أنزَلْنا على كُفَّارِ قُرَيشٍ كُتُبًا قَبلَ القُرآنِ يَقرَؤونَها، وما أرسَلْنا إليهم قَبلَك -يا مُحَمَّدُ- رَسولًا يُنذِرُهم عذابَ اللهِ.

كما قال تعالى: أَمْ آَتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا [فاطر: 40].

وقال سُبحانَه: أَمْ آَتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آَثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ [الزخرف: 21، 22].

وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آَتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (45).

وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ.

أي: وكذَّب الَّذين مِن قَبلِ كُفَّارِ قُرَيشٍ مِن الأُمَمِ السَّابِقةِ، كعادٍ وثمودَ، وما بلَغَ كُفَّارُ مَكَّةَ عُشْرَ الَّذي آتَيْناه لتلك الأُمَمِ الماضيةِ؛ مِن العَدَدِ، والأموالِ، والأولادِ، والقُوَّةِ، وغَيرِ ذلك مِنَ النِّعَمِ![43]

كما قال تعالى: كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا [التوبة: 69].

وقال سُبحانَه: أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا [الروم: 9].

وقال عزَّ وجلَّ: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [غافر: 82].

---

(43) ذكر ابنُ عطية (٧/ ١٩٣، ١٩٤) ثلاثة أقوال في معنى قوله تعالى: ﴿وما بَلَغُوا مِعْشــارَ ما آتَيْناهُمْ﴾: الأول: أن يعود الضمير في ﴿بلغوا﴾ على قريش، وفي ﴿آتيناهم﴾ على الأمم الذين من قبلهم.

ووجَّهه بقوله: «والمعنى: من القوة والنعم والظهور في الدنيا».

والثاني: بعكس القول الأول، ووجَّهه بقوله: «والمعنى: من الآيات والبيان والنور الذي جئتهم به».

والثالث: أن يعود الضميران على الأمم المتقدمة، ووجَّهه بقوله: «والمعنى: من شُكْرِ النعمة، وجزاء المِنَّة».

فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ.

أي: فكذَّب كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلي فيما جاؤوهم به مِنَ الحقِّ، فأهلَكْناهم، فكيف كان إنكاري عليهم وعِقابي لهم؟

سورةُ سَبَأٍ

الآيات (46–50)

قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ
هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (46) قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ
أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (47) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ
(48) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (49) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى
نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (50)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

جِنَّةٍ: أي: جُنونٍ، وأصلُ (جنن): السَّتْرُ والتَّسَتُّرُ؛ وسُمِّي الجُنونُ بذلك؛ لأنَّه يَستُرُ العقلَ ويُغطِّيه.

يَقْذِفُ: أي: يُلْقي، وأصلُ (قذف): يدُلُّ على الرَّميِ والطَّرحِ.

وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ: أي: زال الباطِلُ وهلَك؛ فلم تَبْقَ منه بقيَّةٌ يُقبِلُ بها أو يُدبِرُ، أو يُبدِئُ أو يُعيدُ؛ فالإبداءُ والإعادةُ مِن صفةِ الحيِّ، فعدمُهما عبارةٌ عن الهلاكِ، وأصلُ (بدأ): يدُلُّ على افتتاحِ الشَّيءِ، وأصلُ (عود): يدُلُّ على تثنيةٍ في الأمرِ؛ عَوْدًا بعدَ بَدْءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (46).

قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ.

أي: قُلْ –يا مُحَمَّدُ– لكُفَّارِ قَومِك: إنَّما أُشيرُ عليكم وأنصَحُكم بالقيامِ بخَصلةٍ واحِدةٍ فحَسْبُ.(44)

(44) اختلف في معنى «الواحدة» التي وُعِظوا بها على قولين، وهذا الاختلاف انبنى عليه اختلافهم في معنى القيام، والتفكر، والوقف على ﴿تتفكروا﴾؛ فمن قال بأن الواحدة التي وُعِظوا بها هي الطاعة والإخلاص والعبادة، كان معنى القيام عنده: هو قيامهم بحق هذه الكلمة من الطاعة والإخلاص والعبادة، ويكون التفكر: في آيات الله والإيمان به، والوقف على ﴿تتفكروا﴾، قال ابنُ عطية (٧/ ١٩٤): «وقوله: ﴿تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وفُرادى﴾ يحتمل أن يريد بالطاعة والإخلاص والعبادة، فتكون الواحدة التي وعظ بها هذه، ثم عطف عليها أن تتفكَّروا في أمره هو، هل به جنة أو هو بريءٌ من ذلك؟ والوقف عند أبي حاتم ﴿تَتَفَكَّرُوا﴾، فيجيء ﴿ما بِصاحِبِكُمْ﴾ نفيًا مستأنفًا، وهو عند سيبويه جواب ما تنزل منزلة القسم؛ لأن» تَفَكَّرَ «من الأفعال التي تعطي التحقيق، كتَبَيَّنَ، وتكون الفكرة –على هذا– في آيات الله والإيمان به».

ومن قال بأن الواحدة التي وُعِظوا بها هي القيام مثنى وفرادى للتفكر في أمر محمد – ﷺ – هل به جنة أم لا؟ كان معنى القيام والتفكر عنده: أن يكون لوجه الله للتفكير في أمر محمد – ﷺ – بأن يفكر الواحد بينه وبين نفسه، ويكون الوقف على ﴿ما بِصاحِبِكُمْ مِن جِنَّة﴾، قال ابنُ عطية: «ويحتمل أن يريد بقيامهم: أن يكون لوجه الله في معنى التفكير في محمد عليه الصلاة والسلام، فتكون الواحدة التي وعظ بها ﴿أَنْ تَقُومُوا﴾، والمعنى: الفكرة: أن تقوموا للفكرة في أمر صاحبهم، وكأن المعنى: أن يفكر الواحد بينه وبين نفسه، وتتناظر الآيتان على جهة طلب التحقيق هل بمحمد – ﷺ – جِنَّة أم لا؟ وعلى هذا لا يوقف على الفكرة».

أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى.

أي: أن تَقوموا بِهِمَّةٍ واجتِهادٍ على وَجهِ الإخلاصِ للهِ تعالى، واستِحضارِ عَظَمتِه، دونَ اتّباعٍ لهوًى، أو تعصُّبٍ لِعَشيرةٍ، فتَقوموا مجتَمِعينَ اثنَينِ اثنَينِ، وفَرْدًا فَردًا.

ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ.

أي: ثمَّ تتفكَّروا مع غيرِكم ومع أنفُسِكم في شأنِ محمَّدٍ، فتَعلَموا أنَّه ليس بصاحِبِكم الَّذي خالطْتُموه وعرَفْتُم أحوالَه ورَجاحةَ عَقلِه: مِن جُنونٍ!

كما قال تعالى: أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ [الأعراف: 184].

إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ.

أي: ما مُحمَّدٌ إلَّا نَذيرٌ لكم يُنذِرُكم عذابًا شَديدًا وقَريبًا قبْلَ حُلولِه بكم؛ لِكُفرِكم.

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((صَعِدَ النَّبيُّ - ﷺ - الصَّفا ذاتَ يومٍ، فقال: يا صَبَاحاه![45] فاجتمَعَت إليه قُرَيشٌ، قالوا: ما لَكَ؟ قال: أرأيتُم لو أخبَرْتُكم أنَّ العَدُوَّ يُصَبِّحُكم أو يُمَسِّيكم، أمَا

(45) هذه كلِمةٌ يقولُها المُستغيثُ، وأصْلُها إذا صاحوا للغارةِ؛ لأنَّهم أكثَرُ ما كانوا يُغيرون عندَ الصَّباحِ، ويُسَمُّون يومَ الغارةِ يومَ الصَّباحِ، فكأنَّ القائلَ «يا صَباحاه» يقولُ: قد غَشِيَنا العدوُّ.
وقيل: إنَّ المُتقاتِلينَ كانوا إذا جاء اللَّيلُ يَرجِعون عن القتالِ، فإذا عاد النَّهارُ عاوَدوه، فكأنَّه يريدُ بقوله «يا صَباحاه»: قد جاء وقتُ الصَّباحِ، فتأهَّبوا للقتالِ.
يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (3/6، 7).

كنتُم تُصَدِّقُونِي؟ قالوا: بلى، قال: فإنِّي نذيرٌ لكم بيْنَ يَدَيْ عذابٍ شديدٍ، فقال أبو لهبٍ: تبًّا لك، ألهذا جمعْتَنا؟! فأنزل الله: تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ [المسد: 1]))ـ[46].

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (47).

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ.

أي: قُلْ –يا محمَّدُ– لِمُشركي قَومِك: إنْ سألْتُكم أجرًا فهو لكم؛ فلا أُريدُ منكم أجرًا على تَبليغي رِسالةَ اللهِ إليكم، ولا تَظُنُّوا أنِّي أدعوكم إلى الإيمانِ باللهِ وطاعتِه وأُنذِرُكم عذابَه لآخُذَ شَيئًا مِن أموالِكم.

كما قال تعالى: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ [ص: 86، 87].

إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ.

أي: ما أَجْري على تَبليغِكم رِسالةَ اللهِ إلَّا على اللهِ وَحْدَه.

(46) رواه البخاري (4801) واللفظ له، ومسلم (208).

وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.

أي: واللهُ على كُلِّ شَيءٍ رَقيبٌ حاضِرٌ؛ فهو يَشهَدُ على حقيقةِ ما أقولُه لكم وأدعوكم إليه، ولو كُنتُ كاذِبًا لأخَذَني بعذابٍ، وشَهيدٌ على أنَّني بلَّغتُكم وأنذَرْتُكم، فكذَّبتُموني وخالَفْتُم، فأجري على اللهِ، وعُقوبتُكم عليه.

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (48).

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: إنَّ رَبِّي يُلقي الوَحيَ على رَسولِه.

عَلَّامُ الْغُيُوبِ.

أي: العلَّامُ بكُلِّ ما يَغيبُ عن خَلقِه، لا يخفَى عليه شَيءٌ.

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (49).

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: جاء الحقُّ الَّذي لا يَقدِرُ أحدٌ على إزالتِه وإبطالِه، بنُزولِ القُرآنِ المُشتَمِلِ على البَيِّناتِ والحُجَجِ، وبدِينِ الإسلامِ.

وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ.

أي: واضمَحلَّ الباطِلُ، وذهَبَ ذَهابًا لم يَبقَ معه إقبالٌ له ولا إدبارٌ؛ فلا أثَرَ له ولا وُجودَ!

كما قال اللهُ تعالى: وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا [الإسراء: 81].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((دخَل النَّبيُّ – ﷺ – مكَّةَ، وحوْلَ البيتِ سِتُّونَ وثلاثُ مئةِ نُصُبٍ، فجعَل يَطعُنُها بعُودٍ في يَدِه، ويقولُ: جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا [الإسراء: 81]، جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ [سبأ: 49]))[47].

قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (50).

قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي.

أي: قُلْ –يا مُحمَّدُ– لِمُشرِكي قَومِك: إن ضلَلْتُ عن الهُدى، واتَّبَعْتُ غيرَ الحَقِّ؛ فإنَّما إثمُ ضلالي وضرَرُه على نَفْسي لا عليكم!

وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي.

أي: وإنِ اتَّبعْتُ الحَقَّ واستقَمْتُ عليه، فذلك بتوفيقِ رَبِّي لي إلى اتِّباعِ القُرآنِ الَّذي يُوحيه إلَيَّ.

---

(47) رواه البخاري (4720) واللفظ له، ومسلم (1781).

كما قال تعالى: قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [المائدة: 15، 16].

إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أي: إنَّ ربِّي سَميعٌ لجميعِ الأصواتِ والأقوالِ، قَريبٌ مِن عبادِه سُبحانَه.

كما قال تعالى: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ [البقرة: 186].

وقال سُبحانَه: وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ [هود: 61].

وعن أبي موسى الأَشْعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنَّا مع النَّبيِّ – ﷺ – في سَفَرٍ، فجعلَ النَّاسُ يَجهَرونَ بالتَّكبيرِ، فقال النَّبيُّ – ﷺ –: أيُّها النَّاسُ، ارْبَعُوا[48] على أنفُسِكم؛ إنَّكم ليس تَدْعُونَ أصَمَّ ولا غائبًا، إنَّكم تَدْعونَ سَميعًا قَريبًا، وهو معكم)).[49]

---

(48) ارْبَعُوا: أي: ارفُقوا بأنفُسِكم، واخفِضوا أصواتَكم.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (26/17).

(49) رواه البخاري (2992)، ومسلم (2704) واللفظ له.

سورةُ سَبَأٍ

الآيات (51–54)

وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (51) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (52) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (53) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (53)

غَريبُ الكَلِماتِ:

فَلَا فَوْتَ: أي: فلا نجاةَ ولا هربَ، والفَوتُ: التَّفَلُّتُ والخلاصُ مِن العِقابِ، وأصلُه يدُلُّ على خِلافِ إدراكِ الشَّيءِ، والوُصولِ إليه.

التَّنَاوُشُ: أي: التَّناوُلُ، وإدراكُ ما يُريدونَ، أو التَّناوُلُ السَّهلُ أو الخَفيفُ، وأكثرُ وُرودِه في شُرْبِ الإبلِ شُرْبًا خَفيفًا مِن الحوضِ ونحوِه، وأصلُ (نوش): يدُلُّ على تَناوُلِ الشَّيءِ.

وَحِيلَ: أي: حُجِزَ ومُنِعَ، وأصلُ (حول): يدُلُّ على انفِصالِ الشَّيءِ عن غَيرِه.

بِأَشْيَاعِهِمْ: أي: بأشباهِهم مِن كَفَرةِ الأُمَمِ؛ جمعُ شِيَعٍ، وشِيَعٌ: جَمعُ شِيعةٍ، وهم كُلُّ قَومٍ اجتَمَعوا على أمرٍ، وأصلُه مِنَ التَّشييعِ، وهو التَّتَبُّعُ والتَّقوية.

مُرِيبٍ: أي: مُوقِعٍ للتُّهمةِ، والرِّيبةُ: التُّهمةُ، وهي ظنُّ السوءِ، فهي قِسمٌ مِن الشَّكِّ، والرِّيبةُ: قَلَقُ النَّفْسِ، وانتفاءُ الطُّمَأْنينةِ، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (51).

أي: ولو ترَى الَّذين كَفَروا –يا محمَّدُ– حينَ فزَعِهم عندَ رُؤيتِهم عذابَ اللهِ، فلا يَستطيعون منه بُعدًا، وأُخِذوا مِن موضعٍ قَريبٍ، فلم يَتمَكَّنوا مِنَ الفِرارِ بَعيدًا.(50)

---

(50) ذكر ابنُ عطية (٧/ ١٩٦) أنّ قوله تعالى: ﴿وأُخِذُوا مِن مَكانٍ قَرِيبٍ﴾ «معناه: أنهم للقدرة قريب حيث كانوا».
ثم ذكر قول مجاهد من طريق ابن جريج، ووجَّهه بقوله: «وهذا يتوجَّه على بعض الأقوال».
ثم علَّق بقوله: «والذي يعُمُّ جميعها أن يقال: إن الأخذ يجيئهم مِن قرب في طمأنينتهم، بينا الكافر يؤمِّل ويَظُنُّ ويترجّى إذ غشيه الأخذ، ومن غشيه أُخذ من قريب، فلا حيلة له ولا رويَّة».
اختُلِف في المعنيّين بقوله تعالى: ﴿ولَوْ تَرى إذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ﴾ على ثلاثة أقوال: الأول: عُنِيَ بها المشركون عند نزول نقمة الله بهم في الدنيا.
الثاني: عُنِيَ بذلك المشركون إذا فزعوا عند خروجهم من قبورهم.
الثالث: عُنِيَ بذلك جيشٌ يُخْسَف به بِبَيْداء من الأرض.
ورجَّح ابنُ جرير (١٩/ ٣١٣) مستندًا إلى دلالة السياق القولَ الأول والثاني، فقال: «والذي هو أولى بالصواب في تأويل ذلك، وأشْبَهُ بما دلَّ عليه ظاهر التنزيل: قولُ مَن قال: ذلك وعيد الله المشركين الذين كذَّبوا رسول الله – ﷺ – من قومه؛ لأنّ الآيات قبل هذه الآية بالإخبار عنهم وعن إساءتهم، وبوعيد الله إياهم مَضَتْ، وهذه الآية في سياق تلك الآيات، فَلَأَن يكون ذلك خبرًا عن حالهم أشْبَه منه بأن يكون خبرًا عمّا لم يَجْرِ له ذِكْرٌ، وإذ كان ذلك كذلك فتأويل الكلام: ولو ترى –يا محمد– هؤلاء المشركين من قومك، فتُعايِنُهُم حين فزعوا من معايَنَتِهم عذاب الله ﴿فَلا فَوْتَ﴾».
ورجَّح ابنُ عطية (٧/ ١٩٦) القول الثاني، وهو قول الحسن، بقوله: «وهذا أرجح الأقوال عندي».
ولم يذكر مستندًا، وانتقد القول الثالث قائلًا: «وهذا قول بعيد، وروي في هذا المعنى حديث مطوَّل عن حذيفة، وروى الطبري أنه ضعيف السند مكذوب فيه على ابن روّاد بن الجراح».
وبنحوه ابنُ كثير (١١/ ٢٩٩ بتصرف)، فقال: «أورد ابن جرير في ذلك حديثًا موضوعًا بالكلية، ثم لم ينبِّه على ذلك، وهذا أمرٌ عجيبٌ غريبٌ منه»، وذكر ابنُ كثير القول الأول والثاني وكذا القول بأنهم أخذوا من تحت أقدامهم، ثم رجَّح قائلًا: «والصحيح أن المراد بذلك يوم القيامة، وهو الطامة العظمى، وإن كان ما ذُكِر متصلًا بذلك».
ولم يذكر مستندًا.

وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (52).

وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ.

أي: وقالوا: آمَنَّا بالحَقِّ.

وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ.

أي: وكيف لهم تناوُلُ الإيمانِ النَّافعِ في الآخرةِ، وقد ضيَّعوا وقتَ إمكانِه في دارِ الدُّنيا بكفرِهم فيها، وبَعُدوا عن محلِّ قَبولِه منهم، وصاروا إلى الدَّارِ الآخرةِ، فحِيلَ بيْنَهم وبيْنَه؟!

وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (53).

وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ.

أي: وهم قد كفَروا بالحَقِّ قبْلَ ذلك.

وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ.

أي: ويَرمُونَ بالغَيبِ مِن مَوضِعٍ بعيدٍ!

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (54).

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ.

أي: ومُنِعوا عمَّا يَشتَهونَ كما فعَل اللهُ بنُظَرائِهم وأشباهِهم مِن الكافِرينَ مِن قَبْلِهم.[51]

إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ.

أي: إنَّهم كانوا في شَكٍّ يُوجِبُ لهم الارتيابَ والتُّهمةَ والاضطِرابَ في شأنِ الحقّ.

(51) قال ابن الجوزي: (قال المفسِّرونَ: والمعنى: كما فُعِل بنُظَرائهم مِن الكفارِ، مِنْ قَبْلِ هؤلاء، فإنَّهم حِيل بيْنَهم وبينَ ما يَشتَهونَ.
وقال الضَّحَّاكُ: هم أصحابُ الفيلِ حينَ أرادوا خرابَ الكعبةِ).
((تفسير ابن الجوزي)) (3/504).
وقال ابنُ جُزَي: (وِمنْ قَبْلُ يحتمِلُ أن يتعلَّقَ بـ فُعِلَ، أو بِأَشْيَاعِهِمْ؛ على حسَبِ معنى ما قبْلَه).
((تفسير ابن جزي)) (2/170).
ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (4/427).
وقال الألوسي: (مِنْ قَبْلُ متعلِّقٌ بِأَشْيَاعِهِمْ على أنَّ المرادَ مَن اتَّصفَ بصفتِهم مِنْ قَبْلُ أي: في الزَّمانِ الأوَّلِ، ويرجِّحُه أنَّ ما يُفعَلُ بجميعِهم في الآخرةِ إنَّما هو في وقتٍ واحدٍ.
أو متعلِّقٌ بـ فُعِلَ إذا كانت الحيلولةُ في الدُّنيا).
((تفسير الألوسي)) (11/332).

تَفْسِيرُ
سُورَةِ فاطرٍ

سورةُ فاطرٍ

سورةُ فاطرٍ

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (فاطرٍ)،[52] وسُورةِ (الملائكةِ).[53]

سورةُ فاطرٍ مَكِّيَّةٌ، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ.[54]

---

(52) سُمِّيت بسُورةِ (فاطرٍ)؛ لذِكرِ هذا الاسمِ الجليلِ والنَّعتِ الجميلِ: (فاطر) في طليعتِها.

يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (158/8)، ((تفسير ابن عاشور)) (247/22).

وقد وردت تسميتُها بذلك عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما.

يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (673/6).

(53) سُمِّيت بسُورةِ الملائكةِ؛ لأنَّه ذُكِرَ في أوَّلِها صِفةُ الملائكةِ، ولم يقَعْ في سورةٍ أخرى.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (247/22).

قال ابن عاشور: (وسُمِّيَت في «صحيحِ البخاريِّ» وفي «سننِ الترمذيِّ» وفي كثيرٍ مِن المصاحِفِ والتَّفاسيرِ «سورةَ الملائكةِ» لا غيرُ).

((تفسير ابن عاشور)) (247/22).

ويُنظر: ((صحيح البخاري)) عقب حديث (4801)، ((سنن الترمذي)) (كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)، باب (36) قبل حديث (3225)، ((الإتقان)) للسيوطي (194/1).

وقد وردت تَسميتُها بسورةِ الملائكةِ عن قَتادةَ، وابنِ أبي مُلَيْكةَ.

يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (3/7).

(54) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي، والبِقاعي.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (505/3)، ((تفسير القرطبي)) (318/14)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (386/1)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (383/2).

مِن أهَمّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

1- إثباتُ وحدانيَّةِ اللهِ تعالى عن طريقِ التَّذكيرِ بنِعَمِه المبثوثةِ في الكَونِ.

2- إثباتُ قُدرةِ اللهِ الكاملةِ، ومنها قدرتُه على البَعثِ.

3- إثباتُ صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

مِن أهَمّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:

1- افتتاحُ السُّورةِ بحَمدِ الله تعالى، وخَلقِه للسَّمواتِ والأرضِ، وجَعْلِه الملائِكةَ رُسُلًا أُولي أجنِحةٍ، وتقريرِ قُدرتِه على كُلِّ شَيءٍ.

2- ذِكرُ بعضِ مظاهرِ قُدرةِ الله تعالى في الخَلقِ، ونِعَمِه على عبادِه.

3- تسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتثبيتُه ببيانِ حالِ مَن سبَقَه مِن الأنبياءِ.

4- التَّحذيرُ مِن الدُّنيا، ومِن الاغترارِ بوَساوِسِ الشَّيطانِ.

5- بيانُ جزاءِ المؤمنينَ، وجزاءِ الكافِرينَ.

6- امتِنانُ اللهِ بإرسالِ الرِّياحِ، وإنزالِ المطَرِ، وإحياءِ الأرضِ الميْتةِ، وما في ذلك مِن دَلالةٍ على البَعثِ والنُّشورِ.

7- بيانُ أطوارِ خَلقِ الإنسانِ ومراحِلِ نموِّه، وآياتِ اللهِ ونِعَمِه في البِحارِ والأنهارِ.

8- ذِكرُ افتِقارِ الخَلقِ إلى اللهِ سُبحانَه، وغِناه عنهم سُبحانَه.

9- تقريرُ أنَّه لا يَحمِلُ أحدٌ وِزْرَ غَيرِه، وأنَّ الَّذين يَنتَفِعونَ بالنُّذُرِ هم مَن يَخشَونَ اللهَ تعالى ويُطيعونَه.

10- ضَرْبُ المثَلِ للكافِرِ والمؤمِنِ، وللجاهِلِ والعالِمِ.

11- تقريرُ وظيفةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتسليتُه بما أصاب الرُّسُلَ قَبْلَه، ومصيرِ مَن كفَروا بهم.

12- الدَّعوةُ إلى النَّظَرِ في الكَونِ، وإنزالِ اللهِ المطَرَ مِن السَّماءِ، وإخراجِ الثِّمارِ المتنَوِّعةِ الألوانِ؛ والنَّظَرِ في الجِبالِ وتعَدُّدِ ألوانِها، والنَّاسِ والدَّوابِّ والأنعامِ وألوانِها المتعَدِّدةِ الكثيرةِ؛ وتقريرُ أنَّ العُلماءَ هم الَّذين يَخشَونَ اللهَ.

13- بيانُ فَضلِ الَّذين يَتلُونَ القُرآنَ، ويُقيمونَ الصَّلاةَ، ويُنفِقونَ سِرًّا وعلانيةً.

14- تقريرُ أنَّ هذا الكتابَ المنَزَّلَ هو الحَقُّ يُصَدِّقُ ما بيْنَ يدَيْهِ مِن الكُتُبِ المنَزَّلةِ، وأنَّ اللهَ أوْرَثَه مَن اختارهم؛ وبيانُ دَرَجاتِ الوارِثينَ، وما ينتَظِرُهم مِن النَّعيمِ المُقيمِ، ثمَّ قابَلَهم بذِكرِ الكافِرين وجزائِهم.

15- الحديثُ عن جَهالاتِ المُشرِكينَ؛ حيثُ عَبَدوا مِن دونِ اللهِ تعالى ما لا يملِكُ لهم ضَرًّا ولا نفعًا، وعن مَكرِهم السَّيِّئِ الَّذي لا يَحيقُ إلَّا بأهلِه، ونَقْضِهم لعُهودِهم.

16- خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ ببيانِ سَعةِ رَحمةِ اللهِ تعالى بالنَّاسِ.

سورةُ فاطرٍ

الآيات (1–4)

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ
يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا
مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (2) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا
نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى
تُؤْفَكُونَ (3) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (4)

غَريبُ الكَلِماتِ:

فَاطِرِ: أي: خالِقِ ومُبتَدِئِ، يُقالُ: فطَرَ اللهُ الخَلْقَ، أي: ابتدَأَهم، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه.

مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ: أي: اثنَينِ اثنَينِ، وثلاثًا ثلاثًا، وأربعًا أربعًا؛ لبعضِهم جَناحانِ، ولبعضِهم ثلاثةٌ، ولبعضِهم أربعةٌ.

تُؤْفَكُونَ: أي: تُصرَفونَ عن الحَقّ، والإفكُ: كلُّ مَصروفٍ عن وَجهِه الَّذي يحِقُّ أن يكونَ عليه، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1).

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: الحمدُ الكاملُ ثابِتٌ ومختَصٌّ باللهِ وَحْدَه الَّذي خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ، على غيرِ مِثالٍ سابِقٍ.

جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ.

أي: جاعِلِ الملائِكةِ رُسُلًا بيْنَه وبيْنَ مَن يَشاءُ مِن خَلقِه -لِتَبليغِ أوامِرِه الدِّينيَّةِ، وتدبيرِ أوامِرِه القَدَريَّةِ- أصحابَ أجنِحةٍ، فيَنزِلونَ مِن السَّماءِ إلى الأرضِ، ويَصعَدونَ مِن الأرضِ إلى السَّماءِ؛ فمِنهم مَن له جَناحانِ، ومنهم مَن له ثلاثةُ أجنِحةٍ، ومنهم مَن له أربعةٌ.

يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ.

أي: يَزيدُ في الخَلْقِ[55] ما يَشاءُ بحَسَبِ ما تقتَضيه حِكمتُه؛ فقد فضَّل بعضَ الملائِكةِ بزيادةِ الأجنِحةِ على أربعةٍ.

(55) قيل: قَولُه تعالى: يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ يعُمُّ الزِّيادةَ في خَلْقِ الملائكةِ وغيرِهم من المخلوقاتِ.
وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ جرير، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين.

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أي: إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، لا يَستعصي عليه شَيءٌ؛ فلا تُعجِزُه زيادةُ ما يَشاءُ في الخَلْقِ كيف يَشاءُ.

مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (2).

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (19/ 327)، ((تفسير ابن عاشور)) (251/22)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: 15).

قال الرَّسْعَني: (والصَّحيحُ: أنَّ الآيةَ مُطْلَقةٌ تَشملُ كلَّ زيادةٍ في الخَلقِ: مِن صَباحةٍ في الوجهِ، ومَلاحةٍ في العَينِ، وفَصاحةٍ في اللِّسانِ، وسَماحةٍ في النَّفْسِ، وحَصافةٍ في العقلِ، وجَزالةٍ في الرَّأيِ، وجَراءةٍ في القلبِ، إلى غيرِ ذلك مِن أنواعِ الزِّيادةِ ممَّا لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ تعالى).

((تفسير الرسعني)) (269/6).

وقيل: المرادُ بذلك: الزِّيادةُ في خَلقِ الملائكةِ.

ونَسَب القرطبيُّ هذا القولَ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (320/14).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ، وأنَّه يَزيدُ في أجنحتِها ما يَشاءُ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ، والحسَنُ.

يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (777/2)، ((تفسير ابن الجوزي)) (505/3).

قال ابنُ كثير: (منهم [أي: الملائكةِ] مَن له أكثَرُ مِن ذلك، كما جاء في الحديثِ: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رأى جبريلَ لَيلةَ الإسراءِ وله ستُّ مئةِ جَناحٍ [البخاري: «3232» ومسلم «174»]...، ولهذا قال: يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

((تفسير ابن كثير)) (532/6).

مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا.

أي: ما يَفتحْه اللهُ للنَّاسِ مِن رَحمةٍ، سواءٌ مِن الأرزاقِ الحِسِّيَّةِ أو المعنويَّةِ، فلا يَستطيعُ أحدٌ كائنًا مَن كان أن يَحبِسَها ويُغلِقَ أبوابَها، فيَمنعَ عَطاءَ اللهِ عن عبادِه.

وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ.

أي: وما يُغلِقِ اللهُ مِن رَحمةٍ[56] عن النَّاسِ ويَحبِسْها عندَه، فلا يَستطيعُ أحدٌ كائنًا مَن كان أن يُطلِقَها لهم.[57]

---

(56) ممَّن قال بأنَّ المحذوفَ في قَولِه تعالى: وَمَا يُمْسِكْ هو الرَّحمةُ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والسعدي، والشنقيطي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (19/328)، ((تفسير القرطبي)) (14/321)، ((تفسير السعدي)) (ص: 684)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (6/277).
وقيل: حُذِفَ المتعلَّقُ هنا؛ لإفادةِ العمومِ في كلِّ ما يمسكُ؛ فما يُمسِكُه اللهُ يَشملُ الرَّحمةَ وغيرَها مِن الشَّرِّ والضُّرِّ.
استظهره أبو حيَّان، واختاره الألوسي، وذهب إليه ابنُ عثيمين.
يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (9/12)، ((تفسير الألوسي)) (11/339)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: 25، 26).
(57) والضَّميرُ في قَولِه تعالى: مِنْ بَعْدِهِ قيل: عائدٌ على اللهِ تعالى.
وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، والسمرقنديُّ، والسمعانيُّ، وابنُ عثيمين.
يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/551)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (2/777)، ((تفسير السمرقندي)) (3/99)، ((تفسير السمعاني)) (4/345)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: 26، 28).
وقيل: عائدٌ على الإمساكِ.
وممَّن قال بهذا: الرَّسْعَنيُّ، والبيضاوي، والنسفي، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، والعُلَيمي، والقاسمي.
يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (6/270)، ((تفسير البيضاوي)) (4/253)، ((تفسير النسفي)) (3/76)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 571)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (16/7)، ((تفسير العليمي)) (5/438)، ((تفسير القاسمي)) (8/159).

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

أي: واللهُ هو العزيزُ القَدْرِ، الغالِبُ القاهِرُ لكُلِّ شَيءٍ، المُمتَنِعُ عليه كلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ وهو الحَكيمُ الَّذي يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللَّائِقِ به، فما يَفتَحُه للخَلقِ مِن رحمتِه أو يُمسِكُه عنهم هو وَفْقُ حِكمتِه سُبحانَه، ولا يَقدِرُ أحَدٌ على نَقْضِ أمْرِه المحكَمِ المتقَنِ.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (3).

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

أي: يا أيُّها النَّاسُ اذكُروا ما أنعمَ اللهُ به عليكم، فانظُروا هل تَجِدونَ خالِقًا غيرَ اللهِ يرزُقُكم مِنَ السَّماءِ ومِنَ الأرضِ -بالمطرِ والنَّباتِ وغيرِهما-؛ فيَستَحِقَّ العبادةَ؟!

كما قال تعالى: أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ [الملك: 21].

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ.

أي: لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ وحْدَه، فكيف تُصرَفونَ عن عبادةِ الخالِقِ الرَّازِقِ إلى عبادةِ مَن لا يَخلُقُ شَيئًا، ولا يرزُقُكم شيئًا؟!

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (4).

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ.

أي: وإن يُكَذِّبْك -يا محمَّدُ- كفَّارُ قَومِك، فتلك سُنَّةُ أمثالِهم مِن كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ الَّذين كَذَّبوا رُسُلَهم؛ فلا تَحزَنْ لذلك، ولك فيمَنْ سبَقَك مِنَ الرُّسُلِ أُسوةٌ.

وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه مَرجِعُ جَميعِ الأُمورِ.

سورةُ فاطرٍ

الآيات (5–8)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5) إِنَّ
الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (6) الَّذِينَ
كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (7) أَفَمَنْ
زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ
نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (8)

غَريبُ الكَلِماتِ:

الْغَرُورُ: أي: الشَّديدُ التَّغريرِ والخِداعِ، والمرادُ به الشَّيطانُ، يقالُ: غَرَرتُ فُلانًا: إذا أصبْتَ غِرَّتَه ونِلتَ منه ما تُريدُه، مِنَ الغِرَّةِ: وهي الغَفلةُ.

حَسَرَاتٍ: جمعُ حَسْرةٍ، والحَسْرةُ: شدَّةُ الحزنِ أو النَّدَمُ الشَّديدُ وهمُّ النَّفسِ على ما فاتَ مِن الأمرِ، وأصلُ (حسر): يدُلُّ على كشْفِ الشَّيءِ، فالحسرةُ انْكِشافٌ عن حالِ النَّدامَةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5).

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ.

أي: يا أيُّها النَّاسُ إنَّ ما وعَدَكم اللهُ به صِدقٌ لا شكَّ فيه، كائنٌ لا مَحالةَ.

فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا.

أي: فلا تَخدَعَنَّكم حياتُكم الدُّنيا، والتَّمتُّعُ بمَلَذَّاتِها، والانشِغالُ بها.

وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ.

أي: ولا يَخدَعَنَّكم الشَّيطانُ بوَساوِسِه، وأمانيِّه الباطِلةِ، ووُعودِه الكاذِبةِ.

كما قال اللهُ سُبحانَه وتعالى: وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا [النساء: 119، 120].

إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (6).

إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا.

أي: إنَّ الشَّيطانَ لكم عَدُوٌّ حريصٌ على إضلالِكم؛ فعادُوه أشدَّ العَداوةِ، وخالِفوه فيما يأمُرُكم، واحذَروا طاعتَه، واستَفرِغوا وُسْعَكم في محاربتِه ومُجاهَدتِه.

كما قال تعالى: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا [الكهف: 50].

إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ.

أي: إنَّما يَدْعو الشَّيطانُ أشياعَه وأتْباعَه إلى طاعتِه والقَبولِ منه، والكفرِ بالله، وغرَضُه أنْ يُضِلَّهم حتَّى يَكونوا مِن أهلِ النَّارِ.

كما قال الله تعالى: كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ [الحج: 4].

وقال سُبحانَه: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ [لقمان: 21].

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (7).

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ.

أي: الَّذين كفَروا بالحَقِّ لهم عذابٌ شديدٌ.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ.

أي: والَّذين آمَنوا بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا -تصديقًا لإيمانِهم- الأعمالَ الصَّالحةَ الخالِصةَ للهِ تعالى، والموافِقةَ لِشَرعِه: لهم مَغفِرةٌ مِن الله لذُنوبِهم، فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها؛ ولهم أجرٌ كَبيرٌ.

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (8).

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا.

أي: أفمَنْ حُسِّنَ له عَمَلُه السَّيِّئُ، فرآه حسَنًا، كمَنْ ليس كذلك؟!

كما قال تعالى: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا [الكهف: 103 – 106].

وقال سُبحانَه: أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ [محمد: 14].

فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ.

أي: فإنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشاءُ إضلالَه، فيَصرِفُه عن الإيمانِ واتِّباعِ الحقِّ؛ ويَهدي مَن يَشاءُ هدايتَه، فيَدُلُّه ويُوفِّقُه للإيمانِ واتِّباعِ الحقّ.

كما قال تعالى: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [النحل: 93].

فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ.

أي: فلا تُهلِكْ نَفْسَك –يا محمَّدُ– حَزَنًا على الكافِرينَ؛ بسَبَبِ ضَلالِهم عن الحَقّ.

كما قال تعالى: فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا [الكهف: 6].

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ.

أي: إنَّ اللهَ عليمٌ بما يَصنَعُه الكافِرونَ، فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن ذلك، وسيُجازيهم عليه.

سورةُ فاطرٍ

الآيات (9–11)

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (9) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (10) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (11)

غَريبُ الكَلِماتِ:

فَتُثِيرُ سَحَابًا: أي: تُحرِّكُه وتَنشُرُه وترَفعُه وتُهَيِّجُه، أو تُنشِئُه، يُقالُ: ثارَ الغُبارُ والسَّحابُ ونحوُهما: انتشَر ساطِعًا، وقد أثَرْتُه، وأصلُ (ثور) هنا: انبِعاثُ الشَّيءِ.

النُّشُورُ: أي: الحياةُ والمَرجِعُ، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتَشَعُّبِه.

يَبُورُ: أي: يَبطُلُ ويَفسُدُ، والبَوارُ: فَرطُ الكَسادِ، وأصلُ (بور): يدُلُّ على هلاكِ الشَّيءِ.

نُطْفَةٍ: النُّطفةُ: هي المَنِيُّ، وقيل: الماءُ الصَّافي، وقيل: الماءُ القليلُ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (9).

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا.

أي: واللهُ الَّذي أرسَلَ الرِّياحَ بقُدرتِه، فتُثيرُ سَحابًا، فسُقْناه إلى بلدٍ لا نباتَ فيه، فأخصَبْنا تلك الأرضَ المُجْدِبةَ، وأنبَتْنا فيها الزَّرعَ بعدَ يَبَسِها.

كما قال تعالى: اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا [الروم: 48].

كَذَلِكَ النُّشُورُ.

أي: كما أحيا اللهُ الأرضَ المَيْتةَ يُحيي الأمواتَ بعدَ فَنائِهم، فيُخرِجُهم مِن قُبورِهم أحياءً.

كما قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [الأعراف: 57].

وقال سُبحانَه: وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ [الزخرف: 11].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((ما بيْنَ النَّفختَينِ أربعون. قالوا: يا أبا هريرةَ، أربعون يومًا؟ قال أبَيْتُ! قالوا: أربعونَ شَهرًا؟ قال: أبَيْتُ! قالوا: أربعون سَنةً؟ قال: أبَيتُ![58] ثمَّ يُنزِلُ اللهُ مِنَ السَّماءِ ماءً فيَنبُتونَ كما يَنبُتُ البَقْلُ. قال: وليس مِن الإنسانِ شَيءٌ إلَّا يَبْلَى، إلَّا عَظْمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنبِ،[59] ومنه يُركَّبُ الخَلقُ يومَ القيامةِ)).[60]

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (10).

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا.

أي: مَن كان يريدُ العِزَّةَ فلْيَطلُبْها مِن الله، ولْيَتسبَّبْ لِنَيْلِها بطاعتِه؛ فإنَّ لله وَحْدَه جميعَ العِزَّةِ دونَ مَن سِواه.[61]

---

(58) معناه: أبَيْتُ أن أجزِمَ أنَّ المرادَ أربعون يومًا أو شهرًا أو سَنةً، بل الَّذي أجزِمُ به أنَّها أربعون مُجمَلةً؛ لأنَّه إنَّما سَمِعَ (أربعين) ولم يُعَيَّنْ له.

يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (454/3)، ((شرح النووي على مسلم)) (91/18، 92).

(59) هو العَظْمُ اللطيفُ الَّذي في أسفلِ فقارِ الظَّهرِ، وأعلَى ما بينَ الأليتَينِ.

يُنظر: ((التعليق على الموطأ)) للوقشي (268/1)، ((شرح النووي على مسلم)) (92/18)، ((طرح التثريب)) للعراقي (307/3).

(60) أخرجه البخاري (4935)، ومسلم (2955) واللفظ له.

(61) اختُلِف في معنى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ في هذه الآية على أقوال: الأول: من كان يريد العزة بعبادة الآلهة والأوثان فإن العزة لله جميعًا.

الثاني: مَن كان يريد العزة فليتعزز بطاعة الله.

كما قال تعالى: الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا [النساء: 139].

وقال سُبحانَه: وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا [يونس: 65].

وقال تعالى: وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا *كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا [مريم: 81، 82].

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ.

أي: إلى اللهِ وَحْدَه يَصعَدُ الكَلامُ الطَّيِّبُ، والعمَلُ الصَّالِحُ الَّذي يَعمَلُه العبدُ خالِصًا للهِ تعالى ومُوافِقًا لِشَرعِه يَرفَعُه.(62)

الثالث: مَن كان يريد علم العزة لمن هي فإنها لله جميعًا كلها، أي: كل وجه من العزة فلله.

ورجَّح ابنُ جرير (١٩/ ٣٣٧) مستندًا إلى دلالة السياق القول الأول والثاني، وهو قول قتادة، وعلَّل ذلك بقوله: «لأن الآيات التي قبل هذه الآية جَرَتْ بتقريع الله المشركين على عبادتهم الأوثان، وتوبيخه إياهم، ووعيده لهم عليها، فأولى بهذه أيضًا أن تكون من جنس الحثّ على فراق ذلك، فكانت قصتها شبيهة بقصتها، وكانت في سياقها».

وعلَّق ابنُ عطية (٧/ ٢٠٥) على القول الأول بقوله: «وهذا تمسُّكٌ بقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١]».

(62) اختلف في هاء الكناية في قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُهُ﴾ على ثلاثة أقوال: الأول: أنها ترجع إلى العمل الصالح، والمعنى: والعمل الصالح يرفعه الكلم الطَّيِّب.

الثاني: أنها ترجع إلى الكلم الطَّيِّب، والمعنى: والعمل الصالح يرفع الكلم الطَّيِّب.

الثالث: أنها ترجع إلى الله – عز وجل –، والمعنى: والعمل الصالح يرفعه الله إليه.

ورجَّح ابنُ عطية (٧/ ٢٠٦) القول الثالث، وهو قول ابن عباس من رواية مقاتل، وقتادة من طريق معمر، وقال: «وهذا أرجح الأقوال»، ولم يذكر مستندًا.

وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ.

أي: والَّذين يَعمَلونَ الأعمالَ السَّيِّئةَ لهم عذابٌ شديدٌ يُهانونَ فيه غايةَ الإهانةِ؛ جزاءَ مَكرِهم.

وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ.

أي: وعمَلُ أولئكَ وخِداعُهم يَبْطُلُ ويَذهَبُ، فلا يَروجُ، ولا يَنفعُهم بشَيءٍ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ.

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ

(11).

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا.

أي: واللهُ خلَقَ أباكم آدَمَ مِن ترابٍ، ثمَّ خلَقَكم مِن مَنيٍّ، ثمَّ جعَلَكم ذُكرانًا وإناثًا.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ... [الحج: 5].

وقال اللهُ سُبحانَه وتعالى: وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى [النجم: 45، 46].

وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ.

أي: وما مِن أنثى تَحمِلُ حَمْلًا أو تضَعُه إلَّا واللهُ عالمٌ به، لا يخفَى عليه شَيءٌ منه، فيَعلَمُ وَقْتَ حَمْلِه ووَضْعِه، ونَوْعَه وشَكْلَه، وغيرَ ذلك مِن شُؤونِه.

وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ.

أي: وما مِن زيادةٍ في عُمُرِ إنسانٍ أو نُقصانٍ منه إلَّا وذلك مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ.(63)

---

(63) اختلف في معنى: ﴿وما يُعَمَّرُ مِن مُعَمَّرٍ ولا يُنْقَصُ مِن عُمُرِهِ إلا فِي كِتابٍ﴾ في هذه الآية على قولين: الأول: أن المعنى: وما يُعَمَّر من مُعَمَّرٍ ولا يُنقَص من عُمُرِ آخَرَ غيره إلا في كتاب.

الثاني: وما يُعَمَّر من مُعَمَّرٍ ولا يُنقَص من عمره بفناء ما فني من أيام حياته إلا في كتاب.

ووجَّه ابنُ جرير (١٩/ ٣٤٤) القول الأول بقوله: «فالهاء التي في قوله: ﴿ولا يُنْقَصُ مِن عُمُرِهِ﴾ على هذا التأويل –وإن كانت في الظاهر أنها كناية عن اسم المُعمَّر الأول– فهي كنايةُ اسمٍ آخرَ غيره، وإنما حسُن ذلك لأن صاحبها لو أُظهِرَ أُظهِرَ بلفظ الأول، وذلك كقولهم: عندي ثوبٌ ونصفُه، والمعنى: ونصفُ الآخر».

ووجَّهه ابنُ عطية (٧/ ٢٠٧) بقوله: «أي: أن القول تضمن شخصين، يُعَمَّر أحدهما مائة سنة أو نحوها، ويُنقَص من الآخر بأن يكون عامًا واحدًا أو نحوه ...

لكنه أعاد الضمير إيجازًا واختصارًا، والبيان التام أن يقول: ولا يُنقَص من عُمر مُعَمَّر.

لأن لفظ» مُعَمَّر «هي بمنزلة: ذي عُمْر، كأنه قال: ولا يُعَمَّر من ذي عُمْر ولا يُنقَص من عُمْر ذي عُمْر».

ووجَّه ابنُ جرير القول الثاني بقوله: «والهاء على هذا التأويل للمُعمَّر الأول؛ لأن معنى الكلام: ما يُطوَّل عمرُ أحدٍ، ولا يَذهَب من عمره شيءٌ فيُنقَص، إلا وهو في كتابٍ عند الله مكتوب، قد أحصاه وعَلِمَه».

ووجَّهه ابنُ عطية (٧/ ٢٠٨) بقوله: «أي: ما يُعَمَّر إنسانٌ ولا يُنقَص من عمره، بأن يُحصى ما مضى منه، إذا مَرَّ حولٌ كتب ذلك، ثم حول.

فهذا هو النقص».

ورجَّح ابنُ جرير (١٩/ ٣٤٥) القول الأول مستندًا إلى دلالة الظاهر، وهو قول ابن عباس من طريق العوفي، والضحاك، وابن زيد من طريق ابن وهب، وما في معناه، وعلَّل ذلك بأنه: «أظهر معنييه، وأشبههما بظاهر التنزيل».

وذكر ابنُ عطية أنه روي عن كعب الأحبار أن معنى: ﴿ولا يُنقَص من عمره﴾ «أي: لا يخترم بسبب قدرة الله تعالى، ولو شاء لأخر ذلك السبب، وروي أنه قال حين طُعِن عمر؟: لو دعا الله لزاد في أجله.

فأنكر عليه المسلمون ذلك، وقالوا: إن الله تعالى يقول: ﴿فَإذا جاءَ أجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً﴾ [الأعراف: ٣٤].

كما قال الله تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ [الأنعام: 2].

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((مَن أحَبَّ أن يُبْسَطَ له في رِزْقِه، ويُنْسَأَ له في أثَرِه؛ فلْيَصِلْ رَحِمَه)).(64)

فاحتج بهذه الآية».

ثم انتقده مستندًا إلى الدلالة العقلية قائلًا: «وهو قولٌ ضعيف مردود، يقتضي القول بالأجَلَيْن، وبنحوه تمسَّكت المعتزلة».

ورجَّح ابنُ تيمية (٥/ ٣٠٣) مستندًا إلى النظائر: «أن الله يكتب للعبد أجلًا في صحف الملائكة، فإذا وصل رَحِمَه زاد في ذلك المكتوب، وإن عمل ما يوجب النقص نقص من ذلك المكتوب.

ونظير هذا ما في الترمذي وغيره عن النبي – ﷺ –: «أن آدم لما طلب من الله أن يريه صورة الأنبياء من ذريته فأراه إياهم، فرأى فيهم رجلًا له بصيص، فقال: من هذا، يا رب؟ فقال: ابنك داود.

قال: فكم عمره؟ قال: أربعون سنة.

قال: وكم عمري؟ قال: ألف سنة.

قال: فقد وهَبْتُ له من عمري ستين سنة.

فكتب عليه كتاب، وشهدت عليه الملائكة، فلما حضرته الوفاة قال: قد بقي من عمري ستون سنة.

قالوا: وهبتها لابنك داود.

فأنكر ذلك، فأخرجوا الكتاب.

قال النبي – ﷺ –: فنسي آدم فنسيت ذريته، وجحد آدم فجحدت ذريته».

وروي أنه كمل لآدم عمره ولداود عمره، فهذا داود كان عمره المكتوب أربعين سنة ثم جعله ستين، وهذا معنى ما روي عن عمر أنه قال: اللهم، إن كنت كتبتني شقيًّا فامحني واكتبني سعيدًا؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت.

والله سبحانه عالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ فهو يعلم ما كتبه له وما يزيده إيّاه بعد ذلك، والملائكة لا علم لهم إلا ما علمهم الله، والله يعلم الأشياء قبل كونها وبعد كونها؛ فلهذا قال العلماء: إنّ المحو والإثبات في صحف الملائكة، وأما علم الله سبحانه فلا يختلف، ولا يبدو له ما لم يكن عالمًا به، فلا محو فيه ولا إثبات».

(64) أخرجه البخاري (5986)، ومسلم (2557).

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال لها: ((إنَّه مَن أُعطِيَ حَظَّه مِن الرِّفقِ فقد أُعطِيَ حَظَّه مِن خَيرِ الدُّنيا والآخرةِ، وصِلةُ الرَّحِمِ وحُسْنُ الخُلُقِ وحُسْنُ الجِوارِ يَعمُرانِ الدِّيارَ، ويَزيدانِ في الأعمارِ)).(65)

إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ.

أي: إنَّ ذلك الأمرَ العظيمَ مِن كتابةِ أعمارِ جميعِ الخَلقِ؛ ما زاد منها وما نَقَص، وتقديرِها، وإحصاءِ ساعاتِها ودقائِقِها، والإحاطةِ بها على وَجهِ التَّفصيلِ: أمرٌ يسيرٌ على اللهِ سُبحانَه، فلا يَعسُرُ عليه شَيءٌ مِن ذلك.

(65) أخرجه أحمد (25259) واللفظ له، وأبو يعلى (4530)، وأبو نُعيم في ((حلية الأولياء)) (159/9).
وثَّق رجالَ إسنادِه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (429/10)، وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (519)، وصحَّح الحديثَ الوادعيُّ في ((الصحيح المسند)) (1656).

سورةُ فاطرٍ

الآيات (12–14)

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا
طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ (12) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ
يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ
قِطْمِيرٍ (13) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14)

غَريبُ الكَلِماتِ:

فُرَاتٌ: أي: شَديدُ العُذوبةِ.

سَائِغٌ: أي: سَهلٌ، وأصلُ (سوغ): يدُلُّ على سُهولةِ الشَّيءِ.

أُجَاجٌ: أي: مُرٌّ، شَديدُ الملوحةِ، وأصلُ (أجج) هنا: يدُلُّ على شِدَّةِ الملُوحةِ.

حِلْيَةً: أي: لُؤلؤًا ومَرجانًا، والحِلْيةُ: مَا يتحَلَّى به النَّاسُ، أيْ: يَتزيَّنونَ، وأصلُ (حلو) هنا: يدُلُّ على تَحسينِ الشَّيءِ.

مَوَاخِرَ: أي: جواريَ تَشُقُّ الماءَ وتَخرِقُه مع صَوتٍ، وأصلُ (مخر): يدُلُّ على شَقٍّ وفَتْحٍ.

يُولِجُ: أي: يُدخِلُ، أو يأخُذُ منه فيَطولُ ذلك ويَقصُرُ هذا، وأصلُ (ولج): يدُلُّ على دُخولِ شَيءٍ.

وَسَخَّرَ: أي: ذلَّل، والتَّسْخيرُ: سِياقةٌ إلى الغَرَضِ المختصِّ قَهرًا، وأصلُ (سخر): يدلُّ على استذلالٍ.

قِطْمِيرٍ: القِطميرُ: القِشرةُ أو اللِّفافةُ الرَّقيقةُ البَيضاءُ التي تكونُ على نَواةِ التَّمرةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12).

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ.

أي: وما يَتماثَلُ البَحرانِ اللَّذانِ خلَقَهما اللهُ مختَلِفَينِ بقُدرتِه وحِكمتِه؛ فماءُ أحَدِهما ذُو طَعمٍ طَيِّبٍ حُلوٍ، ومَذاقٍ لَذيذٍ بالغِ العُذوبةِ، يُستساغُ شُربُه، ويَسهُلُ ابتلاعُه بلا صُعوبةٍ ولا كَراهةٍ، ومِياهُ الآخَرِ بخِلافِ ذلك؛ فهي شَديدةُ الملوحةِ والمرارةِ.

وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا.

أي: ومِن كُلِّ بحرٍ منهما -عذْبًا كان أو مالِحًا- تأكُلونَ لحمًا طَرِيًّا مِن أنواعِ السَّمَكِ وغَيرِه.

وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا.

أي: وتَستَخرِجونَ مِن البَحرِ -مالِحًا كان أم عذبًا- زينةً كاللُّؤلؤِ والمَرجانِ تتحلَّونَ بلُبسِها.

كما قال تعالى: يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ [الرحمن: 22].

وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ.

أي: وترى السُّفُنَ تَجري في البَحرِ، وهي تَشُقُّ الماءَ وتَدفَعُه بصُدورِها دونَ أن تَغرَقَ فيه.(66)

لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ.

أي: لِتَطلُبوا بُركوبِكم السُّفُنَ في البِحارِ مَعايشَكم، وتتنقَّلوا بها لِتجاراتِكم، إلى غيرِ ذلِك.

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

أي: ولعلَّكم تَشكُرونَ اللهَ على تَسخيرِه لكم ذلك.

كما قال تعالَى: وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [النحل: 14].

وقال سُبحانَه: اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [الجاثية: 12].

---

(66) بيَّن ابنُ عطية (٧/ ٢٠٩) أن المَخْر: هو الصوت الذي يحدث من جري السفينة بالريح.

ثم علَّق بقوله: «وعبَّر المفسرون عن هذه بعبارات لا تختص باللفظة».

وذكر قول قتادة، ثم نقل عن مجاهد أن المعنى: الريح تمخر السفن، ولا تمخر الريح من السفن إلا الفلك العظام.

ثم استدرك قائلًا: «والصواب: أن تكون الفلك هي الماخرة، لا الممخورة».

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13).

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ.

أي: يُدخِلُ اللهُ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيلِ.

وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى.

أي: وذلَّل اللهُ لكم الشَّمسَ والقَمَرَ، فيَجريانِ في فَلَكِهما لمصالحِكم إلى وَقتٍ محدَّدٍ مَضروبٍ.

ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ.

أي: ذلِكم العَظيمُ، الذي خلَقَ تلك المذكوراتِ وقام بتَسخيرِها: اللهُ خالِقُكم ورازِقُكم، ومدبِّرُ أُمورِكم، المستَحِقُّ للعِبادةِ وَحدَه، له المُلكُ التَّامُّ كُلُّه وَحدَه لا شَريكَ له.

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ.

أي: وأمَّا الذين تَعبُدونَهم -أيُّها المُشرِكونَ- مِن دُونِ اللهِ؛ فإنَّهم لا يَملِكونَ حتى القِشرةَ البَيضاءَ الرَّقيقةَ التي تكونُ على نواةِ التَّمرةِ.

إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14).

إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ.

أي: إنْ تدْعوا هؤلاء الآلهةَ المزعومةَ التي تَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ؛ لا يَسمَعوا دُعاءَكم.

وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ.

أي: وحتَّى لو سَمِعوا دُعاءَكم، فإنَّهم لا يَستَجيبونَ لكم.

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ.

أي: ويومَ القيامةِ يَكفُرونَ بما وَقعتُم فيه مِن اتِّخاذِهم شُرَكاءَ للهِ تدعونَهم مِن دُونِه.[67]

---

(67) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٢١٠ – ٢١١) في قوله تعالى: ﴿يَكْفُرُونَ﴾ احتمالين: الأول: «أن يكون بكلام وعبارة يقدر الله الأصنام عليها، ويخلق لها إدراكًا يقتضيها».

والثاني: «أن يكون بما يظهر هناك من جمودها وبطولها عند حركة كل ناطق، ومدافعة كل محتج».

ووجَّهه بقوله: «فيجيء هذا على طريق التجوز، كقول ذي الرمة:

وقَفْتُ على رَبْعٍ لِمَيَّةَ ناطِقٍ ...

تُخاطِبُني آثارُهُ وأُخاطِبُه

وأَسْقيه حتى كاد مما أبُثُّهُ ...

تُكَلِّمُني أحجارُه ومَلاعِبُه».

وذكر (٧/ ٢١١ بتصرف) في معنى قوله تعالى: ﴿ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ احتمالًا آخر، فقال: «ويحتمل أن يكون من تمام ذكر الأصنام».

ووجَّهه بقوله: «كأنه قال: ولا يخبرك مثلُ من يُخبِر عن نفسه، وهي قد أخبرت عن نفسها بالكفر بهؤلاء».

كما قال تعالى: وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا [مريم: 81، 82].

وقال اللهُ سُبحانَه: وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ [الأحقاف: 5-6].

وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ.

أي: ولا أحدَ يُنبِّئُك [68] –يا محمَّدُ– مِثلَ ما يُنَبِّئُك اللهُ الذي يَعلَمُ بواطِنَ الأمورِ وحقائِقَها، فلا يخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه.[69]

---

(68) قيل: المرادُ تحقيقُ ما أخبَرَ به مِن حالِ آلهتِهم، ونفيُ ما يدَّعُون لهم من الإلهيةِ.

ممَّن ذكر هذا المعنى: الزمخشري، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والنَّسَفي، وابن جُزي، وأبو السعود، والقاسمي.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (3/606)، ((تفسير الرسعني)) (6/282)، ((تفسير البيضاوي)) (4/256)، ((تفسير النسفي)) (3/82)، ((تفسير ابن جزي)) (2/173)، ((تفسير أبي السعود)) (7/148)، ((تفسير القاسمي)) (8/163).

قال ابنُ جَرير: (يقول تعالى ذِكرُه: ولا يُخبِرُك –يا محمدُ– عن آلهة هؤلاء المشـــركين وما يكونُ مِن أمْرِها وأمْرِ عَبَدتِها يومَ القيامةِ، مِن تبرُّئِها منهم، وكُفرِها بهم، مثل ذي خِبرة بأمْرِها وأمْرِهم؛ وذلك الخبيرُ هو اللهُ الذي لا يخفَى عليه شـيءٌ –كان أو يكون– سُبحانَه).

((تفسير ابن جرير)) (19/351).

وقال ابنُ كثير: (وقوله: وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ، أي: ولا يُخبِرُك بعواقِبِ الأمورِ ومآلها وما تصيرُ إليه، مِثلُ خبيرٍ بها).

((تفسير ابن كثير)) (6/541).

وقال جلال الدِّين المَحليُّ: (وَلَا يُنَبِّئُكَ بأحوالِ الدَّارين مِثْلُ خَبِيرٍ).

((تفسير الجلالين)) (ص: 573).

وقالَ البِقاعيُّ: (وَلَا يُنَبِّئُكَ، أي: إنباءً بليغًا عظيمًا على هذا الوَجهِ بشـــيءٍ مِن الأشـــياءِ مِثْلُ خَبِيرٍ، أي: بالِغِ الخبر، فلا يُمكن الطعنُ في شيءٍ ممَّا أخبر به، وأمَّا غيره فلا يُخبِر خبرًا إلَّا يُوجَّه إليه نقْصٌ).

((نظم الدرر)) (16/30).

(69) قال الكَرمانيُّ: (أجمَع المفسِّرون على أنَّ خَبِيرٍ في الآيةِ: هو اللهُ عزَّ وجلَّ).

((غرائب التفسير)) (2/948).

ممن اختار أنَّ الخِطابَ هنا لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مقاتل بن سليمان، وابن جرير، والسمرقندي، والواحدي، وابن الجوزي.

يُنظر: ((تفسـير مقاتل بن سـليمان)) (3/555)، ((تفسـير ابن جرير)) (19/351)، ((تفسـير السـمرقندي)) (3/103)، ((الوسيط)) للواحدي (3/503)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/509).

وقيل: الخِطابُ هنا لكُلِّ مَن يصِحُّ منه سَماعُ هذا الكلامِ.

وممَّن قال بهذا المعنى: الشربيني، وابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (3/320)، ((تفسير ابن عاشور)) (22/284).

قال ابن عاشور: (لأنَّ هذه الجُملةَ أُرسِلَت مُرسَلَ الأمثالِ؛ فلا يَنبغي تَخصيصُ مَضمونِها بمخاطَبٍ مُعيَّنٍ).

((تفسير ابن عاشور)) (284/22).

سورةُ فاطرٍ

الآيات (15–18)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ
جَدِيدٍ (16) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (17) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى
حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (18)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى: أي: لا تحمِلُ آثِمةٌ إِثْمَ أُخرى غيرِها، والوِزْرُ هو الإثمُ والذَّنْبُ، والثِّقْلُ والحِمْلُ أيضًا. وقيل: الوِزْرُ: هو الحِمْلُ الثَّقيلُ مِن الإثمِ، وهو الإثمُ العَظيمُ، وأصلُ (وزر): يدلُّ على مَا حَمَلَه الإنسانُ، وعلى الثِّقلِ في الشَّيء؛ ومنه سُمِّي الإثمُ وزرًا؛ لأنَّه يُثقِلُ ظهرَ مَن يَحمِلُه.

مُثْقَلَةٌ: أي: نفسٌ أَثْقَلَتْها الذُّنوبُ والأوزارُ، وأصلُ (ثقل): ضِدُّ الخِفَّةِ.

تُنْذِرُ: أي: تُعلِمُ بما تُحذِّرُ منه، وأصلُ الإنْذارِ: إخبارٌ فيه تخويفٌ، أو الإبْلاغُ.

يَخْشَوْنَ: أي: يَخافونَ، وأصلُ الخَشْيَةِ: خوفٌ يَشوبُه تعظيمٌ، وأكثرَ ما يكونُ ذلك عنْ عِلمٍ بما يُخشَى منه. وقيل: الخَشيةُ أَشدُّ مِن الخَوْفِ.

تَزَكَّى: أي: تَطهَّرَ مِن الشِّركِ والفَواحِشِ، وأصْلُ (زكي): يدُلُّ على نَماءٍ وزِيادةٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15).

أي: يا أيُّها النَّاسُ أنتُم المحتاجُونَ إلى اللهِ في كُلِّ شَيءٍ، واللهُ وَحدَه هو الغَنيُّ غِنًى مُطلَقًا مِن جَميعِ الوُجوهِ عن جَميعِ خَلقِه، وعن عِبادِهم؛ فلا يفتَقِرُ إلى شَيءٍ سُبحانَه، ومِن غناه أنَّه يُغني الخَلقَ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ وهو المحمودُ في ذاتِه وأسمائِه، وصِفاتِه وأفعالِه، وأقوالِه وشَرعِه وقَدَرِه، المحمودُ على نِعَمِه، وإحسانِه بخَلقِه.

كما قال تعالى: وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ [محمد: 38].

وقال سُبحانَه: لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ [الحج: 64].

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16).

أي: لو شاءَ اللهُ لأفْناكم وأهْلَكَكُم -أيُّها النَّاسُ- إنْ عَصيْتُموه، وأتى بخَلقٍ غيرِكم يُطِيعونَه.

وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (17).

أي: وليسَ ذلِك على اللهِ بمُتعَذِّرٍ ولا مُمتَنِعٍ؛ لكَمالِ قُدرتِه سُبحانَه.

كما قال تعالَى: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا [النساء: 133].

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (18).

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى.

أي: ولا تَحمِلُ نَفْسٌ آثِمةٌ إثمَ نَفْسٍ أُخرى؛ فكُلُّ إنسانٍ يُجازَى بعمَلِه، ولا يَحمِلُ ذنبَ غيرِه.

كما قال تعالَى: وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى [الأنعام: 164].

وقال سُبحانَه: وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا * مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى [الإسراء: 13 – 15].

وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى.

أي: وإنْ تَستَغِثْ يومَ القِيامةِ نَفْسٌ مُثقَلةٌ بالذُّنوبِ، وتَطلُبْ مَن يَحمِلُ عنها ذُنوبَها، أو يُساعِدُها في حَمْلِ بَعضِها: فلنْ يَحمِلَ أحَدٌ ذلك ولو شيئًا منه، ولو كان المَسؤولُ قريبًا للسَّائِلِ.

إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ.

أي: إنَّما تُنذِرُ –يا محمَّدُ– إنذارًا نافِعًا مُؤثِّرًا، الذين يَخافونَ ربَّهم مع كَونِهم لا يَرَونَه في الدُّنيا، ويَخافونَه في خَلَواتِهم غيرَ مُرائينَ أحَدًا، وأدَّوُا الصَّلواتِ على وَجهٍ تامٍّ مُستقيمٍ، كما أمَرَ اللهُ تعالى؛ فهؤلاء هم الذين يَنتَفِعونَ بالإنذارِ دونَ غَيرِهم.

كما قال تعالى: إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ [يس: 11].

وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ.

أي: ومَن تَطَهَّرَ مِن دَنسِ الكُفرِ والذُّنوبِ، بالإيمانِ باللهِ والتوبةِ إليه، واستَكثَرَ مِن العَمَلِ الصَّالِحِ؛ فإنَّما يَعودُ نَفعُ ذلك وثَمرتُه على نَفْسِه.

كما قال تعالَى: خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا [التوبة: 103].

وقال سُبحانَه: وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى* الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى [الليل: 17، 18].

وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه المَرجِعُ والمآلُ والمُنقَلَبُ.

سورةُ فاطرٍ

الآيات (19–26)

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (19) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (20) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ
(21) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي
الْقُبُورِ (22) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (23) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا
فِيهَا نَذِيرٌ (24) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ
وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (25) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (26)

غَريبُ الكَلِماتِ:

الْحَرُورُ: أي: الرِّيحُ الحارَّةُ، والنَّارُ، وأصلُه يدُلُّ على خِلافِ البَرَدِ والظِّلِّ.

خَلَا: أي: سلَفَ ومضَى، وأصلُ (خلو): يدُلُّ على تَعرِّي الشيءِ مِن الشيءِ.

وَبِالزُّبُرِ: أي: الكُتُبِ، جمْعُ زَبورٍ، وهو: كُلُّ كِتابٍ ذي حِكمةٍ، وأصلُه يدُلُّ على قِراءةٍ وكِتابةٍ.

نَكِيرِ: أي: إنكاري، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المَعرِفةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (19).

أي: ولا يَستوي الأعمَى والبصيرُ في إدراكِ المُبصَراتِ، وكذا لا يَستوي الكافِرُ والمؤمِنُ، والجاهلُ والعالمُ.

كما قال تعالَى: وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ [غافر: 58].

وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (20).

أي: ولا تَستوي الظُّلُماتُ معَ النُّورِ، وكذا لا تَستوي ظُلماتُ الكُفرِ ونُورُ الإيمانِ.

وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (21).

أي: ولا يَستوي الظِّلُّ ولا شِدةُ الحَرِّ، وكذا لا تَستوي الجَنَّةُ والنارُ.

وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (22).

وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ.

أي: ولا يَستوي الأحياءُ مع الأمواتِ، وكذا لا يَستوي المؤمِنونَ مع الكُفَّارِ.

إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ.

أي: إنَّ اللهَ يُسمِعُ مَن يَشاءُ إسماعَه.

وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ.

أي: وليس في مَقدورِك –يا محمَّدُ– أن تُسمِعَ الأمواتَ في قُبورِهم، وكذا ليس في مَقدورِك هِدايةُ مَن لم يَشأِ اللهُ هِدايتَه.

كما قال اللهُ تعالَى: إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ [النمل: 80، 81].

إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (23).

أي: ما أنت –يا محمَّدُ– إلَّا نذيرٌ تُبلِّغُ رِسالةَ اللهِ سُبحانَه، سواءٌ أَستجابَ لك النَّاسُ أم لم يَستَجيبوا؛ فإنَّما جعَلَ اللهُ لك الاستِطاعةَ على الإنذارِ الذي كلَّفَك به، لا على إسماعِ مَن لم يَشَأِ اللهُ إسماعَه، أو على هِدايةِ مَن لم يَشأِ اللهُ هدايتَه.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (24).

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا.

أي: إنَّا أرسَلْناك –يا محمَّدُ– بالحقِّ بشيرًا لِمَن أطاعَك، ونَذيرًا لِمَن عَصاك.

وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ.

أي: وما مِن أُمَّةٍ من الأُمَمِ الماضيةِ إلَّا بعَثْنا فيهم رَسولًا يُنذِرُهم عذابَ اللهِ تعالَى.

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (25).

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

أي: وإنْ يُكَذِّبْك -يا مُحمَّدُ- كُفَّارُ قَومِك، فقد كَذَّب الذين مِن قَبلِهم مِنَ الأُمَمِ الماضِيةِ رُسُلَهم؛ فلسْتَ بأوَّلِ رَسولٍ كذَّبَه قَومُه؛ فلا تحزَنْ!

جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ.

أي: جاءَتْ تلك الأُمَمَ الماضيةَ رسُلُهم بالأدِلَّةِ الظَّاهِرةِ، وبالكُتُبِ الإلهيَّةِ، وبالكِتابِ المُنيرِ.

كما قال تعالَى: فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ [آل عمران: 184].

ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (26).

ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا.

أي: ثمَّ أهلَكْتُ أولئك الذين كَفَروا بي وبما جاءَتْهم به رسُلُهم.

فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ.

أي: فكيفَ كان إنكاري على تِلك الأُمَمِ المكَذِّبةِ وعِقابي؟

سورةُ فاطرٍ

الآيتان (27–28)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28)

غَريبُ الكَلِماتِ:

جُدَدٌ: أي: خُطوطٌ وطَرائِقُ تكونُ في الجِبالِ، واحِدُها: جُدَّةٌ، وهي: الطريقةُ الظَّاهِرةُ، وأصلُ (جدد) هنا: يدُلُّ على القَطعِ.

وَغَرَابِيبُ: جمْعُ غِربيبٍ، وهو: الشَّديدُ السَّوادِ، والعَرَبُ تقولُ للشَّديدِ السَّوادِ الذي لونُه كلَونِ الغُرابِ: أسوَدُ غِربيبٌ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27).

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا.

أي: ألَمْ تَرَ –يا محمَّدُ– أنَّ اللهَ أنزلَ مِن السَّماءِ ماءً، فأخرَجْنا بهذا الماءِ الواحدِ ثَمراتٍ مُختَلِفةَ الألوانِ؟!

كما قال تعالَى: وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [الرعد: 3، 4].

وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ.

أي: وجَعَل سُبحانَه مِن الجِبالِ خُطوطًا وطَرائِقَ بيضاءَ وحَمراءَ، مُختَلِفةَ الألوانِ، وخُطوطًا وطَرائِقَ شَديدةَ السَّوادِ.

وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28).

وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ.

أي: وكما جعَلَ اللهُ ألوانَ الثَّمَراتِ والجِبالِ مُختَلِفةً، كذلك جعَلَ النَّاسَ والدَّوابَّ والأنعامَ من الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ مُختَلِفةَ الألوانِ، كالحُمرةِ، والبَياضِ، والسَّوادِ، والصُّفرةِ، وغيرِها مِن الألوانِ.

كما قال تعالَى: وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ [الروم: 22].

إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ.

أي: إنَّما يَخافُ اللهَ تعالَى ويُعظِّمُه، فيتَّقي عِقابَه بطاعتِه وتَرْكِ مَعصيتِه مِن خَلقِه: العُلَماءُ العالِمونَ باللهِ تعالَى وصِفاتِه وقُدْرتِه على كُلِّ شيءٍ، والعالِمونَ بشَرائعِه.(70)

---

(70) نقل ابنُ عطية (٧/ ٢١٦) عن بعض المفسرين قولهم: الخشية رأس العلم.

ثم انتقدهم قائلًا: «وهذه عبارة وعْظِيَّةٌ، لا تثبت عند النقد».

ثم رجَّح (٧/ ٢١٧) قائلًا: «بل الصحيح المطرد أن يُقال: العلم رأس الخشية وسببها، والذي ورد عن النبي - ﷺ - أنه قال: «خشية الله رأس كل حكمة».

وقال: «رأس الحكمة مخافة الله».

فهذا هو الكلام المنير».

وبيَّن ابنُ القيم (٢/ ٣٤٨) دلالة الحصر في الآية، فقال: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ يقتضي الحصر من الطرفين أن لا يخشاه إلا العلماء، ولا يكون عالمًا إلا من يخشاه، فلا يخشاه إلا عالم، وما من عالم إلا وهو يخشاه، فإذا انتفى العلم انتفت الخشية، وإذا انتفت الخشية دلَّتْ على انتفاء العلم، لكن وقع الغلط في مسمى العلم اللازم للخشية حيث يظن أنه يحصل بدونها، وهذا ممتنع؛ فإنه ليس في الطبيعة أن لا يخشى النار والأسد والعدو مَن هو عالم بها مواجه لها، وأنه لا يخشى الموت مَن ألقى نفسه مِن شاهق، ونحو ذلك، فأمنُه في هذه المواطن دليلُ عدم علمه، وأحسن أحواله أن يكون معه ظنٌّ لا يصل إلى رتبة العلم اليقيني».

كما قال تعالَى: أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ [الزمر: 9].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((واللهِ إنِّي لأَرْجو أنْ أكونَ أخشاكم للهِ، وأعْلَمَكم بما أتَّقي)).[71]

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((يا أمَّةَ مُحمَّدٍ، واللهِ لو تَعلَمونَ ما أعلَمُ، لضَحِكتُم قليلًا ولبَكَيتُم كثيرًا)).[72]

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ.

أي: إنَّ اللهَ قاهِرٌ غالِبٌ مُنتقِمٌ ممَّن كفَرَ به وعصاه، مُمتنِعٌ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ غفورٌ لذُنوبِ عِبادِه، فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها.

قال ابنُ تيمية (٥/ ٣٠٦): «وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ يقتضي: أنّ كل من خشي الله فهو عالِمٌ؛ فإنه لا يخشاه إلا عالم.

ويقتضي أيضًا: أنّ العالم من يخشى الله كما قال السلف.

قال ابن مسعود: كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار جهلًا».

(71) أخرجه مسلم (1110).

(72) أخرجه البخاريُّ (1044) واللفظ له، ومُسلِمٌ (901).

سورةُ فاطرٍ

الآيات (29–35)

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ
تَبُورَ (29) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (30) وَالَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (31) ثُمَّ أَوْرَثْنَا
الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ
بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (32) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ
أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (33) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ
إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (34) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا
يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (35)

غَريبُ الكَلِماتِ:

تَبُورَ: أي: تَبطُلَ وتَخسَرَ، والبَوارُ: فَرطُ الكَسادِ، وأصلُ (بور): يدُلُّ على هلاكِ الشَّيءِ.

مُقْتَصِدٌ: أي: غيرُ المُبالِغِ في طاعةِ ربِّه، بل يكونُ عمَلُه قَصْدًا، وهو المستوي الحالِ بيْنَ الحالَينِ؛ فهو فوقَ الظَّالِمِ لنفْسِه، ودونَ السَّابقِ بالخَيراتِ، وأصلُ (القصد): استِقامةُ الطَّريقِ.

عَدْنٍ: أي: إقامَةٍ وخُلدٍ، واستقرارٍ وثباتٍ، يُقال: عَدَن بالمكانِ، يَعْدِنُ عَدْنًا، إذا لَزِمه، ولم يَبْرَحْ منه، وأصلُ (عدن): يدُلُّ على الإقامةِ.

يُحَلَّوْنَ: أي: يُلْبَسون ويُزَيَّنون بالحُليِّ.

أَساوِرَ: جمعُ أَسْوِرةٍ، وأسْوِرةٌ جَمعُ سِوارٍ، والسِّوارُ: هو الَّذي يُلبَسُ في المِعصَمِ مِن ذَهَبٍ، وهو اسمٌ مُعرَّبٌ عن الفارسيَّةِ.

أَحَلَّنَا: أي: أنزَلَنا وأدخَلَنا، وحَلَلْتُ: نزلْتُ، أصلُه مِن حَلِّ الأحمالِ عندَ النُّزولِ، ثمَّ جُرِّد استِعمالُه للنُّزولِ، فقيل: حَلَّ حُلُولًا، وأحَلَّه غيرُه.

الْمُقَامَةِ: أي: الإقامةِ والخُلودِ، وأصلُ (قوم) هنا: يدُلُّ على انتِصابٍ أو عَزمٍ.

نَصَبٌ: أي: تعَبٌ وعَناءٌ، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ.

لُغُوبٌ: أي: ضَعفٌ وإعياءٌ، وأصلُ (لغب): يدُلُّ على ضَعفٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (29).

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ.

أي: إنَّ المؤمِنينَ الَّذين يُداوِمونَ على تِلاوةِ القُرآنِ، فيَتتبَّعونَ ألفاظَه بدراستِها، ومعانيَه باستخراجِها، ويتَّبِعونَه بالعَمَلِ بأحكامِه، والتَّصديقِ بأخبارِه.

وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ.

أي: وداوَموا على أداءِ الصَّلواتِ على وَجهٍ تامٍّ مُستقيمٍ كما أمَرَ اللهُ تعالى.

وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً.

أي: وأنفَقوا ممَّا رزَقْناهم مِن الأموالِ -طَلَبًا لِمَرضاةِ الله تعالى- في الخَفاءِ حيثُ لا يَراهم أحدٌ، وفي العَلَنِ بمَرْأًى مِنَ النَّاسِ.

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((لا حسَدَ إلَّا في اثنتَينِ: رجُلٌ آتاه اللهُ القُرآنَ، فهو يقومُ به آناءَ اللَّيلِ وآناءَ النَّهارِ، ورجُلٌ آتاه اللهُ مالًا، فهو يُنفِقُه آناءَ اللَّيلِ وآناءَ النَّهارِ)).(73)

يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ.

أي: يَرجُونَ بتِلاوتِهم كتابَ اللهِ، وإقامتِهم الصَّلاةَ، وإنفاقِهم في السِّرِّ والعَلانيةِ: تجارةً رائجةً رابحةً باقيةً، لن تخسَرَ، ولن تَكسُدَ وتَهلِكَ.

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (30).

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ.

أي: لِيُؤتيَهم اللهُ أجورَ أعمالِهم الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا؛ مِن تلاوةِ القُرآنِ، والصَّلاةِ، والنَّفَقةِ: على وجْهٍ تامٍّ لا نَقْصَ فيه.

وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ.

أي: ويَزيدَهم اللهُ مِن كَرمِه فوقَ ما يَستحِقُّونَ.

---

(73) أخرجه البخاري (5025)، ومسلم (815) واللفظ له.

كما قال تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [البقرة: 261].

وقال سُبحانه: رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ [النور: 37، 38].

إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ.

أي: إنَّ اللهَ غَفورٌ لِذُنوبِهم فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها، وهو شَكورٌ فيَتقبَّلُ منهم أعمالَهم وإن قَلَّت، ويُثيبُهم عليها الثَّوابَ الكثيرَ.

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (31).

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ.

أي: والَّذي أوحَيْناه إليك -يا محمَّدُ- مِن كتابِ اللهِ تعالى هو الحقُّ الكامِلُ، التَّامُّ الثَّابتُ الَّذي يجِبُ اتِّباعُه؛ مُصَدِّقًا لِما بيْنَ يديه مِن كُتُبِ الرُّسُلِ المتقَدِّمةِ.

إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ.

أي: إنَّ اللهَ خَبيرٌ بعبادِه؛ فهو عالِمٌ بدقائقِ أُمورِهم وأحوالِهم وخفاياها، بصيرٌ بهم وبأعمالِهم.

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (32).

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا.

أي: ثمَّ أورثْنا القُرآنَ[74] أُمَّةَ مُحَمَّدٍ – ﷺ – الَّتي اخترْناها مِنْ عِبادِنا.

---

(74) اختلف في معنى الكتاب الموروث، وفي المراد بالمصطَفَين من عباد الله، وفي المراد بالظالم لنفسه، على أقوال: الأول: أن الكتاب: ما أنزله الله من الكتب قبل الفرقان.

والمصطفَيْن من عباده: أمة محمد – ﷺ –.

والظالم لنفسه: أهل الإجرام منهم.

الثاني: أن الكتاب: هو شهادة أن لا إله إلا الله.

والمصطفَيْن: هم أمة محمد – ﷺ –.

والظالم لنفسه منهم: هو المنافق، وهو في النار؛ والمقتصد والسابق بالخيرات في الجنة.

ورجَّح ابنُ جرير (١٩/ ٣٧٣ – ٣٧٤) مستندًا إلى دلالة السياق واللغة والعقل والسنة القول الأول، وهو قول ابن مسعود من طريق شقيق، وابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة، وما في معناه، وعلَّل ذلك بقوله: «لأن الله –جلَّ ثناؤه– قال لنبيّه محمد – ﷺ –: ﴿والَّذِي أوْحَينا إلَيْكَ مِنَ الكِتابِ هُوَ الحَقُّ مُصَدِّقًا لِما بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، ثم أتْبَع ذلك قوله: ﴿ثُمَّ أوْرَثْنا الكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا﴾، فكان معلومًا –إذ كان معنى الميراث إنما هو انتقال معنًى من قومٍ إلى آخرين، ولم تكن أمَّةٌ على عهد نبيّنا – ﷺ – انتقل إليهم كتابٌ من قومٍ كانوا قبلهم غير أمَّته– أن ذلك معناه.

وإذ كان ذلك كذلك فبيّنٌ أن المصطفَيْن من عباده هم مؤمنو أمَّته؛ وأما الظالم لنفسه فإنه لأن يكون من أهل الذنوب والمعاصي –التي هي دون النفاق والشرك عندي– أشْبَهُ بمعنى الآية مِن أن يكون المنافق أو الكافر، وذلك أن الله –تعالى ذِكْره– أتْبَع هذه الآية قوله: ﴿جَنّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها﴾، فعَمَّ بدخول الجنة جميع الأصناف الثلاثة».

ثم قال (١٩/ ٣٧٥): «وقد روي عن رسول الله – ﷺ – بنحو الذي قلنا من ذلك أخبار، وإن كان في أسانيدها نظر، مع دليل الكتاب على صحته، على النحو الذي بيّنتُ».

وذكر حديث أبي الدرداء، وأبي سعيد الخدري.

ورجَّح ابنُ تيمية (٥/ ٣١١ – ٣١٢) وكذا ابنُ كثير (١١/ ٣٢٣)، وابن القيم (٢/ ٣٥٢ – ٣٥٤) استنادًا إلى دلالة ظاهر الآية، والسنة، والسياق، والعقل أنّ الظالم لنفسه من هذه الأمة، فقال ابنُ كثير: «والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة،

فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ.

أي: فمِنهم مَن هو ظالمٌ لنَفْسِه بالتَّقصيرِ والتَّفريطِ؛ يُفرّطُ في بعضِ الواجباتِ، ويَفعلُ بعضَ المحرَّماتِ، ويُصِرُّ عليها.

وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ.

أي: ومنهم مَن عمَلُه قَصْدٌ؛ يُؤدّي الواجباتِ، ويَترُكُ المحرَّماتِ.

وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ.

أي: ومِنهم المؤدّي للفرائضِ والنَّوافلِ، التَّارِكُ للمُحرَّماتِ والمكروهاتِ، فسَبَق غَيْرَه بإذنِ اللهِ تعالى.

وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله - ﷺ - من طُرُق يشد بعضها بعضًا ...»، ثم أورد حديث أبي الدرداء، وأبي سعيد الخدري، وما في معناهما من الأحاديث والآثار، ثم علَّق بقوله: «فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام، وإذا تقرر هذا فإنّ الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه الرحمة».

وقال ابنُ القيم بعد أن ذكر الأحاديث والآثار الدالة على هذا المعنى: «فهذه الآثار يشد بعضها بعضًا، وأنها قد تعددت طرقها واختلفت مخارجها، وسياق الآية يشهد لها بالصحة فلا تعدل عنها».

وذكر ابنُ تيمية أن القول الجامع «أن الظالم لنفسه: هو المفرط بترك مأمور أو فعل محظور. والمقتصد: القائم بأداء الواجبات وترك المحرمات، والسابق بالخيرات: بمنزلة المقرب الذي يتقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض حتى يحبه الحق».

ثم ذكر أنواعًا تدخل تحت كلٍّ منها.

ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ.

أي: ذلك العَطاءُ الَّذي فضَّلَهم اللهُ به على غَيرِهم: هو الفَضلُ الكَبيرُ.[75]

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (33).

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا.

أي: جناتُ إقامةٍ يَدخُلونَها في الآخِرةِ، فلا يَخرُجونَ منها أبدًا.

يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا.

أي: يُلبَسونَ فيها -رِجالًا ونِساءً- أساوِرَ مِن ذَهَبٍ، ويُحَلَّونَ فيها لؤلؤًا؛ زينةً لهم.

وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ.

أي: ولِباسُهم فيها ثيابٌ مِن حريرٍ.

---

(75) نقل ابنُ عطية (٧/ ٢٢٠) أقوالًا أخرى في معنى الآية، فقال: «وقال سهل بن عبد الله: السابق العالم، والمقتصد المتعلم، والظالم الجاهل.
وقال ذو النون: الظالم الذاكر لله بلسانه فقط، والمقتصد الذاكرُ بقلبه، والسابق الذي لا ينساه.
وقال الأنطاكي: الظالم صاحب الأقوال، والمقتصد صاحب الأفعال، والسابق صاحب الأحوال».

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: يَدْخُلُونَهَا قراءتانِ:

1- قراءةُ يُدْخَلُونَهَا على معنى أنَّ غيرَهم يُدخِلُهم.(76)

2- قِراءةُ يَدْخُلُونَهَا على معنى أنَّ الدُّخولَ مِن فِعلِهم.(77)

يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا.

---

(76) قرأ بها أبو عَمرٍو.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/252).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 296).

(77) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/252).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 296).

قال ابنُ عثيمين: (هم إذا أُدخِلوا فقد دخَلوا، فكأنَّ القراءتينِ واحِدٌ، ولكِنْ يُستفادُ منها مِن كلمةِ يُدْخَلُونَهَا بيانُ أنَّهم يُعطَونَها كرامةً).

((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: 234).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: وَلُؤْلُؤًا قِراءتانِ:

1- قِراءةُ وَلُؤْلُؤًا بالنَّصبِ على معنى: ويُحَلَّونَ لُولُؤًا.[78]

2- قِراءةُ وَلُؤْلُؤٍ بالجرِّ، قيل على معنى: يُحَلَّونَ أساوِرَ مِن ذَهَبٍ وأساوِرَ مِن لُؤلُؤٍ، أو على معنى: يُحَلَّونَ أساوِرَ مِن ذَهَبٍ ولُؤلؤٍ، أي: يكونُ السِّوارُ الواحِدُ مُكَوَّنًا مِنَ الذَّهَبِ واللُّؤلؤِ معًا.[79]

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (34).

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ.

أي: وقالوا: الحَمدُ لله الَّذي أذهَبَ عنَّا أحزانَنا، فلا يكونُ لنا حَزَنٌ أبدًا.[80]

---

(78) قرأ بها نافعٌ وعاصمٌ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (326/2)، ((الكشف)) لمكي (117/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (419/3، 420)، ((معاني القراءات)) للأزهري (178/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 474).

(79) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (326/2)، ((الكشف)) لمكي (118/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (420/3)، ((معاني القراءات)) للأزهري (178/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 474).

(80) اختلف في معنى: ﴿الحَزَنَ﴾ في هذه الآية على أقوال: الأول: عُنِيَ به خوف النار.

الثاني: أنه حَزَنَ الموت.

الثالث: حزن الجوع.

كما قال تعالى: وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ [الطور: 25 – 28].

إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

أي: إنَّ ربَّنا لَغفورٌ للذُّنوبِ، فيَسترُها ويَتجاوَزُ عن المؤاخَذةِ بها؛ شَكورٌ يُثيبُ على الأعمالِ الصَّالحةِ –وإن قَلَّتْ– بالكثيرِ مِن الثَّوابِ مِن فَضلِه.

الرابع: أنه التعب الذي كانوا فيه في الدنيا.

الخامس: أنه الذي ينال الظالم لنفسه في موقف القيامة.

ورجَّح ابنُ جرير (١٩/ ٣٧٩) مستندًا إلى دلالة العموم شمول معنى الآية لجميع الأقوال، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يُقال: إن الله –تعالى ذِكْره– أخبر عن هؤلاء القوم الذين أكرمهم بما أكرمهم به، أنهم قالوا حين دخلوا الجنة: ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنّا الحَزَنَ﴾.

وخوف دخول النار من الحَزَن، والجَزَع من الموت من الحزن، والجَزَع من الحاجة إلى المطْعَم من الحزن، ولم يَخْصُصِ الله –إذ أخبر عنهم أنهم حمِدوه على إذهابه الحَزَن عنهم– نوعًا دون نوع، بل أخبر عنهم أنهم عَمُّوا جميع أنوع الحزن بقولهم ذلك، وكذلك ذلك؛ لأن من دخل الجنة فلا حَزَن عليه بعد ذلك، فحَمْدُهم اللهَ على إذهابه عنهم جميع معاني الحَزَن».

ووافقه ابنُ عطية (٧/ ٢٢٢)، فقال: «و﴿الحَزَن﴾ في هذه الآية عامٌّ في جميع الأحزان».

ثم ذكر قول أبي الدرداء، وابن عباس من طريق أبي الجوزاء، وعطية، وقتادة من طريق سعيد، ثم وجَّه قولهم بقوله: «وقيل غير هذا مما هو جزء من الحزن».

ثم علَّق قائلًا: «ولا معنى لتخصيص شيءٍ من هذه الأحزان؛ لأن الحزن أجمع قد ذهب عنهم».

الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (35).

الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ.

أي: الَّذي أنزَلَنا الجنَّةَ وأسكَنَنا فيها، فلا نَنتَقِلُ منها أبدًا، وذلك مِن فَضلِه علينا، لا بأعمالِنا.

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((لن يُدخِلَ أحدًا منكم عَمَلُه الجنَّةَ.
قالوا: ولا أنتَ يا رَسولَ اللهِ؟ قال: ولا أنا إلَّا أن يَتغَمَّدَني اللهُ منه بفَضلٍ ورَحمةٍ)).[81]

لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ.

أي: لا يُصيبُنا في الجنَّةِ أيُّ تَعَبٍ أو مَشَقَّةٍ، ولا يُصيبُنا فيها أيُّ ضَعفٍ أو فُتورٍ.

(81) أخرجه البخاري (5673)، ومسلم (2816) واللفظ له.

سورةُ فاطرٍ

الآيتان (36–37)

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ
نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (36) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ
أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (37)

تَفسيرُ الآيتَينِ:

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (36).

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا.

أي: والَّذين كَفَروا لهم نارُ جهنَّمَ، لا يُقضَى عليهم فيَموتوا ويَستريحوا مِن عذابِها.

كما قال تعالى: إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا [طه: 74].

وعن أبي سعيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أمَّا أهْلُ النَّارِ الَّذين هم أهْلُها فإنَّهم لا يَموتونَ فيها ولا يَحيَونَ)).[82]

وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا.

أي: ولا يُخَفِّفُ اللهُ عنهم مِن عَذابِ جهنَّمَ شَيئًا؛ فهو دائِمٌ ومُستمِرٌّ عليهم في جميعِ الأوقاتِ واللَّحَظاتِ.

---

(82) أخرجه مسلم (185).

كما قال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ [غافر: 49، 50].

وقال سُبحانَه: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ [الزخرف: 74، 75].

وقال تبارك وتعالى: فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا [النبأ: 30].

كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ.

أي: مِثلَ هذا الجزاءِ العَظيمِ يُجازي اللهُ كُلَّ مُتَّصِفٍ بالكُفرِ، فلهم في الآخِرةِ نارُ جهنَّمَ؛ جَزاءً على كُفرِهم.

وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (37).

وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ.

أي: والَّذين كفَروا يَصرُخونَ بشِدَّةٍ وهم في نارِ جهنَّمَ، ويَصيحونَ مُستَغيثينَ مِن شِدَّةِ العذابِ: ربَّنا أخرِجْنا مِن نارِ جهنَّمَ؛ فنَعمَلَ بطاعتِك غيرَ الَّذي كنَّا نَعمَلُه في الدُّنيا مِن الشِّركِ والكُفرِ والمعاصي.

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾.

أي: فيقولُ الله لهم: أوَلَم نُطِلْ أعمارَكم في الدُّنيا إلى زَمَنٍ يتذكَّرُ فيه مَن تذكَّرَ مِن ذوي الألبابِ؟ فلو كُنتُم ممَّن يَنتفِعُ بالحَقِّ لانتفعتُم به في مُدَّةِ عُمُرِكم الَّذي اتَّسَع للتَّذكُّرِ![83]

---

(83) اختُلِف في مقدار التعمير في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ في هذه الآية على أقوال: الأول: أربعون سنة.

الثاني: ستون سنة.

الثالث: ثماني عشر سنة.

الرابع: ست وأربعون.

وعلَّق ابنُ عطية (٧/ ٢٢٤) على القول الأول بقوله: «وهذا قولٌ حسن، ورويت فيه آثار».

وعلَّق على القول الثاني بقوله: «وهذا أيضًا قولٌ حسنٌ مُتَّجه، وروي أن رسول الله - ﷺ - قال: «إذا كان يوم القيامة نودي: أين ابن الستين؟ وهو العمر الذي قال الله فيه: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾».

وقال عليه الصلاة والسلام: «مَن عمَّره الله ستين سنة فقد أعذر إليه في العمر»».

ورجَّح ابنُ جرير (١٩/ ٣٨٦ - ٣٨٧ بتصرف) مستندًا إلى الدلالة العقلية القول الأول، وهو قول ابن عباس من طريق مجاهد، ومسروق، والحسن، فقال: «وأشبه القولين بتأويل الآية قولُ مَن قال: ذلك أربعون سنة؛ لأن في الأربعين يتناهى عقل الإنسان وفهمه، وما قبل ذلك وما بعده مُنتَقَصٌ عن كماله في حال الأربعين».

وانتقد الخبر المروي عن رسول الله - ﷺ - في القول الثاني بأن في إسناده بعض مَن يجب التثبت في نقله.

ورجَّح ابنُ كثير (١١/ ٣٣٢) مستندًا إلى دلالة السنة القول الثاني، فقال بعد أن ذكر أثر ابن عباس من طريق مجاهد أن مقدار التعمير ستون سنة: «فهذه الرواية أصح عن ابن عباس، وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضًا، لما ثبت في ذلك من الحديث كما سنورده ...»، ثم أورد حديث أبي هريرة من عدة طرق، ثم علَّق مبيِّنًا صحته ومنتقدًا ابنَ جرير في تضعيفه للحديث بقوله: «فقد صح هذا الحديث من هذه الطرق، فلو لم يكن إلا الطريق التي ارتضاها أبو عبد الله البخاري شيخ هذه الصناعة لكفت.

وقول ابن جرير: إن في رجاله بعض من يجب التثبت في أمره.

لا يُلْتَفَت إليه مع تصحيح البخاري».

ونقل ابنُ عطية (٧/ ٢٢٣ - ٢٢٤) في مقدار التعمير عن الحسن قوله: «البلوغ».

وعلَّق عليه بقوله: «يريد: أنه أول حال التذكير».

ونقل عن فرقة أنها «عشرون سنة، وحكى الزجاج سبع عشرة سنة».

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أَعْذَرَ[84] اللهُ إلى امرئٍ أخَّر أجَلَه حتَّى بلَّغه سِتّين سَنَةً)).[85]

وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ.

أي: ويُقالُ لهم: وجاءَكم رَسولٌ مِنَ اللهِ يُنذِرُكم عذابَه، وقامَتْ عليكم الحُجَّةُ؛ فلا عُذرَ لكم![86]

كما قال تعالى: أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ [فاطر: 24].

---

(84) أعذَرَ: الهمزةُ للإزالةِ والسَّلبِ، يعني: أزال اللهُ عُذرَ مَن بلغ في العُمُرِ إلى ستّين سنةً.

يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (301/5).

(85) أخرجه البخاري (6419).

قال القرطبي: (المعنى: أنَّ مَن عَمَّره اللهُ ستّين سنةً لم يَبْقَ له عذرٌ؛ لأنَّ السّتّينَ قريبٌ مِن مُعترَكِ المَنايا، وهو سِنُّ الإنابةِ والخُشوعِ، وترقُّبِ المَنيَّةِ ولقاءِ اللهِ تعالى؛ ففيه إعذارٌ بعدَ إعذارٍ).

((تفسير القرطبي)) (353/14).

(86) اختلف في معنى: ﴿النذير﴾ في هذه الآية على قولين: الأول: أنه النبي - ﷺ -.

الثاني: أنه الشيب.

وذكر ابنُ عطية (٧/ ٢٢٥) أن ﴿النذير﴾ «في قول الجمهور: الأنبياء، كل نبي نذير أمته ومعاصريه، ومحمد - ﷺ - نذير العالم في غابر الزمن».

وعلَّق على القول الثاني بقوله: «وهو قولٌ حسن، إلا أن الحجة إنما تقوم بالنذارة الشرعية».

ورجَّح ابنُ كثير (١١/ ٣٣٦) القول الأول مستندًا إلى القرآن، وهو قول قتادة، والسدي، مقاتل، وابن زيد، وابن سلام، فقال: «وهو الأظهر؛ لقوله تعالى: ﴿ونادَوْا يامالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إنَّكُمْ ماكِثُونَ * لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالحَقِّ ولَكِنَّ أكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧ - ٧٨]، أي: لقد بيَّنَّا لكم الحق على ألسنة الرسل، فأبيتم وخالفتم، وقال تعالى: ﴿وما كُنّا مُعَذِّبِينَ حَتّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تبارك وتعالى: ﴿كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وقُلْنا ما نزلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إنْ أنْتُمْ إلا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٨ - ٩]».

وقال سُـــبحانَه: وَأَقْسَـــمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا [فاطر: 42].

وقال عزَّ وجلَّ: كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ [الملك: 8، 9].

فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ.

أي: فذوقوا عذابَ جَهنَّمَ، فما للكافرينَ -الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم في الدُّنيا بالكُفرِ باللهِ، ومَعصيتِه- مِن نصيرٍ يَنصُرُهم فيُنقِذُهم ممَّا هم فيه مِنَ العذابِ.

سورةُ فاطرٍ

الآيات (38–41)

إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (38) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ
خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا
يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (39) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ
مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (40) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (41)

غَريبُ الكَلِماتِ:

بِذَاتِ الصُّدُورِ: أي: بالضَّمائِرِ والنِّيَّاتِ والأسرارِ؛ خَيرِها وشَرِّها؛ لأنَّها في الصُّدورِ، تَحُلُّها وتصاحِبُها، وذاتُ: صاحبةٌ، مؤنَّثُ (ذو) بمعنى صاحبٍ.

خَلَائِفَ: أي: خُلَفاءَ، والخَلَفُ هو التَّالي للمُتقَدِّمِ، وأصلُ (خلف): يدُلُّ على مَجيءِ شَيءٍ بعدَ شَيءٍ.

مَقْتًا: أي: بُغضًا وغَضَبًا، وأصلُ (مقت): يدُلُّ على شَناءةٍ وقُبحٍ.

شِرْكٌ: أي: نَصيبٌ وشَرِكةٌ، وأصلُ (شرك): يدُلُّ على مُقارنةٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (38).

إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: إنَّ اللهَ عالمٌ بما غاب في السَّموَاتِ والأرضِ عن الخَلقِ.

إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ.

أي: إنَّ اللهَ عليمٌ بالضَّمائرِ والنِّيَّاتِ والأسرارِ؛ خَيرِها وشَرِّها.

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (39).

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ.

أي: اللهُ الَّذي جعَلَكم –أيُّها النَّاسُ– خَلَفًا للأُمَمِ مِن قَبلِكم.

كما قال سبحانه وتعالى: ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ [يونس: 14].

فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ.

أي: فمَن كفَرَ فعلى نَفْسِه ضَرَرُ كُفرِه، وهو المعاقَبُ عليه دونَ غَيرِه.

وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا.

أي: ولا يَزيدُ الكافِرينَ استِمرارُهم على كُفرِهم إلَّا بُغضًا شديدًا لهم مِن ربِّهم.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ [غافر: 10].

وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا.

أي: ولا يَزيدُ الكافِرينَ استِمرارُهم على كُفرِهم إلَّا خَسارةً وهَلاكًا في الدُّنيا والآخِرةِ.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (40).

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ مِن قَومِك: أرأيتُم مَنْ تُشرِكونَهم مع اللهِ تعالى فتَدْعونَهم مِن دونِه، أَرُوني ما الَّذي خلَقوه مِن الأرضِ حتَّى استحَقُّوا عبادتَكم لهم؟!

أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ.

أي: أم لِشُركائِكم شِركٌ مع اللهِ في السَّمَواتِ؛ في خَلقِها، أو مُلكِها، أو تَدبيرِها؟!

أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ.

أي: أم آتَيْناهم كتابًا فيه ثُبوتُ الشَّرِكةِ مع اللهِ؛ فالمُشرِكونَ على بُرهانٍ وحُجَّةٍ مِن صِحَّةِ ذلك؟!

كما قال تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [الأحقاف: 4].

بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا.

أي: كُلُّ ذلك مُنتَفٍ؛ فلا باعِثَ لهم على مَزاعِمِهم الباطِلةِ إلَّا خِداعُ بَعضِهم بعضًا بالأمانيِّ الكاذِبةِ والآراءِ الباطِلةِ، فاتَّبَعوا أهواءَهم بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ.

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (41).

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا.

أي: إنَّ اللهَ يُمسِكُ السَّمواتِ والأرضَ بقُدرتِه إمساكًا مانِعًا مِن زوالِهما.

كما قال تعالى: وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ [الحج: 65].

وقال سُبحانَه: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ [الروم: 25].

وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ.

أي: ولو زالَت السَّمَواتُ والأرضُ ما أمسَكَهما أحدٌ مِن الخَلقِ كائنًا مَن كان؛ فلا يَقدِرُ على إبقائِهما إلَّا اللهُ وَحْدَه.

إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا.

أي: إنَّ اللهَ كان حَليمًا لا يُعاجِلُ عِبادَه بالعُقوبةِ والعذابِ مع قُدرتِه التَّامَّةِ عليهم، بل يُؤَخِّرُهم ويُمهِلُهم؛ غفورًا ساتِرًا لذُنوبِ عبادِه، مُتجاوِزًا عن مُؤاخَذتِهم بها.

سورةُ فاطرٍ

الآيات (42-45)

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ
نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (42) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ
إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ
تَحْوِيلًا (43) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ
مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا
(44) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى
أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (45)

غريبُ الكَلِماتِ:

جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ: أي: أقوى الأيمانِ وأغلَظَها مُجتَهِدينَ في تَوكيدِها. وحقيقةُ الجَهدِ: التَّعَبُ والمشَقَّةُ ومُنتهَى الطَّاقةِ، ثمَّ أُطلِقَ على أشَدِّ الفِعلِ ونِهايةِ قُوَّته؛ لِما بيْنَ الشِّدَّةِ والمَشقَّةِ مِن المُلازَمةِ. والأيْمانُ: جمْعُ يَمينٍ، واليمينُ: الحَلِفُ والقَسَم، قيل: أصلُه مِن اليُمْن، أي: البَرَكة؛ سُمِّيت بذلك لأنَّها تَحفَظُ الحقوقَ، وقيل: سُمِّي الحَلِفُ يمينًا؛ لأنَّه يكونُ بأَخْذِ اليَمينِ، أو لأنَّهم كانوا اذا تحالفوا أو توافقوا ضرَب كلُّ امْرِئٍ مِنْهم يَمينَه على يَمينِ صاحِبِه.

وَمَكْرَ السَّيِّئِ: أي: المكرَ السَّيِّئَ، وهو مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى الصِّفةِ، وأصلُ (مكر): الاحتيالُ والخِداعُ، وأصلُ (سوء): يدُلُّ على قُبْحٍ.

يَحِيقُ: أي: يُحيطُ وينزِلُ، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزولُ الشَّيءِ بالشَّيءِ.

سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ: أي: العَذابَ الَّذي نزَلَ بالكُفَّارِ، والسُّنَّةُ: الطَّريقةُ، وأصلُ (سنن): يدُلُّ على جَرَيانِ شَيءٍ واطِّرادِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (42).

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ.

أي: وأقسَم مُشركو العَرَبِ باللهِ بأبلَغِ الأيْمانَ وأغلَظِها –مِن قَبْلِ بَعثةِ محمَّدٍ – ﷺ – أنَّه لو جاءهم رسولٌ مِن عندِ اللهِ يُنذِرُهم عذابَ اللهِ، لَيَكونُنَّ أعظَمَ هدًى مِن إحدى الأُمَمِ السَّابِقةِ.

كما قال تعالى: أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ [الأنعام: 156، 157].

وقال سُبحانَه: وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ [الصافات: 167 – 170].

فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا.

أي: فلمَّا جاءهم محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لِيُنذِرَهم عذابَ اللهِ على شِركِهم وكُفرِهم، ما زادهم مجيئُه إلَّا نُفورًا مِن الحَقِّ، وضَلالًا إلى ضلالِهم، ولم يَصيروا أهدى مِن إحدى الأُمَمِ كما أقسَموا مِن قَبْلُ!

اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (43).

اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ.

أي: عُتوًّا على اللهِ، وتَكبُّرًا في الأرضِ عن الإيمانِ به، ومَكرًا سَيِّئًا بالنَّاسِ، فقد خَدعوهم، وزيَّنوا لهم الباطِلَ؛ لِيَصُدُّوهم عن الحقّ.

وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ.

أي: ولا يَنزِلُ سُوءُ المكرِ السَّيِّئِ إلَّا بأهلِه الَّذين يمكُرونَه، فيَحُلُّ عليهم، ويُحيطُ بهم.

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ.

أي: فهل يَنتظِرُ هؤلاء المُشرِكونَ إلَّا عادةَ اللهِ الجاريةَ في الأُمَمِ السَّابِقةِ في إهلاكِهم في الدُّنيا على كُفرِهم بالحَقّ؟

كما قال تعالى: فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ [يونس: 102].

فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا.

أي: فلن تَجِدَ –يا محمَّدُ– لطريقةِ اللهِ الَّتي قضاها وحَكَم بها تبديلًا لها، بل هي سُنَّةٌ ماضيةٌ، وعادةٌ جاريةٌ، فلا بُدَّ أن يُعذَّبَ هؤلاء المُشرِكونَ إن استمَرُّوا على باطِلِهم؛ ولن تجِدَ لهذه العادةِ تحويلًا.

كما قال تعالى: أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ [المرسلات: 16 – 18].

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (44).

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

أي: أوَلَمْ يَسِرْ هؤلاء المُشرِكونَ في الأرضِ، فيَنظُروا كيف كان عاقِبةُ كُفَّارِ الأُمَمِ الَّذين مِن قَبْلِهم، فيَتَّعِظوا بما حَلَّ بهم مِن العذابِ؛ بسَبَبِ ذُنوبِهم، فيَخافوا ويَحذَروا أن يُصيبَهم مِثلُ ما أصابَهم؟

وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً.

أي: وكان كُفَّارُ الأُمَمِ السَّابِقةِ أشَدَّ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ قُوَّةً، فعذَّبَهم اللهُ بسَبَبِ ذُنوبِهم؛ فلن يَتعذَّرَ على اللهِ إهلاكُ كُفَّارِ قُرَيشٍ كما عذَّب أولئك.

كما قال تعالى: أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ [غافر: 21، 22].

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا.

أي: وإذا أراد اللهُ إهلاكَ المُشرِكينَ أو فِعلَ أيِّ شَيءٍ في السَّمَواتِ أو في الأرضِ، فلن يُعجِزَه ذلك؛ لكَمالِ عِلمِه وقُدرتِه سُبحانَه؛ فلا يخفَى عليه شَيءٌ، ولا يَتعذَّرُ عليه أمرٌ.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (45).

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ.

أي: ولو يُعاقِبُ اللهُ النَّاسَ على جَميعِ ما عَمِلوه مِن الذُّنوبِ ولم يُمهِلْهم، لأهلَكَ جميعَ النَّاسِ والدَّوابِّ على ظَهرِ الأرضِ.

وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى.

أي: ولكِنَّ اللهَ يُمهِلُ الكافِرينَ والعُصاةَ إلى وَقتٍ مَعلومٍ عِندَه، ثمَّ يُحِلُّ بهم عِقابَه.

كما قال تعالى: وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ [النحل: 61].

وقال سُبحانَه: وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا [الكهف: 58].

وعن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ - ﷺ -: ((إنَّ اللهَ لَيُملي[87] للظَّالِمِ حتَّى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه، ثمَّ قرأ: وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [هود: 102]))[88].

---

(87) لَيُمْلي: أي: يُمهِلُ.

يُنظر: ((الكواكب الدراري)) للكرماني (157/17).

(88) أخرجه البخاري (4686) واللفظ له، ومسلم (2583).

فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا.

أي: فإذا جاء وَقتُ أخْذِهم فإنَّ اللهَ بعِبادِه(89) بَصيرٌ، لا يَخفَونَ عليه سُبحانَه.

(89) قيل: المرادُ بعِبادِه: المؤمِنون، فهو تسليةٌ لهم.

ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: الرازيُّ، وقال: (فإذا جاء الهلاكُ فالله بالعبادِ بصيرٌ؛ إمَّا أن يُنجِيَهم، أو يكونَ تَوَفِّيهم تقريبًا مِن الله لا تعذيبًا).

((تفسير الرازي)) (26/249).

وقيل: هذا توعُّدٌ للمُكَذِّبينَ ولِمَن يَستحِقُّ العِقابَ، أي: فيُجازيهم بأعمالِهم.

ومِمَّن قال بهذا القولِ في الجملةِ: الزمخشريُّ، والقرطبي، وأبو حيان.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (3/619)، ((تفسير القرطبي)) (14/362)، ((تفسير أبي حيان)) (9/43).

وقيل: المرادُ بهم جميعُ العبادِ؛ مُؤمِنِهم وكافِرِهم؛ فيُجازيهم بحسَبِ أعمالِهم؛ خَيرِها وشَرِّها.

ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، وجلال الدين المحلي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (19/397)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (9/5995)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 578).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (4/444).

تمَّ بحمدِ الله تعالى المجلَّدُ السَّادسُ والعشرونَ

ويَليه المجلَّدُ السَّابعُ والعشرونَ، وأوَّله: تفسير سُورة يس

الفهرس

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

نسخة
إلكترونية

المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا